الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابي بكر بلقايد -تلمسان -

كلية الاداب و اللغات

قسم اللغة العربية و ادابها

لسان الدين بن الخطيب ناثرا
رحلة نُفاضَةِ الجِراب في عُلالَةِ الاغْتِراب
ـأنموذجا

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الادب المغربي القديم

إعداد الطالبه:

مالكي سميرة

إشـ ـ ـراف:

الاستاذ الدكتور: بومدين كروم

اعضاء لجنة المناقشه:

* ا.د/ محمد زمري	رئيسا
* ا.د/ بومدين كروم	مشرفا
* ا.د/ جيلالي سلطاني	عضوا
* ا.د/ الشيخ بوقربه	عضوا
* د/ العربي الشريف عوتي	عضوا
* د/ محمد باقي	عضوا

السنه الجامعيه : 1432 1433 هـ . / 2011 2012م .

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مقدمة

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الصادق الأمين.

وبعد:

فهذه دراسة عن لسان الدين بن الخطيب العالم الموسوعيّ، فهو لم يكن مؤرخا وكاتبا وأديبا وطبيبا وشاعرا فحسب، بل كان سياسيا أيضا.

ونظرا للنتاج الغزير الذي تركه ابن الخطيب عقدْت العزم على القيام بدراسة مستفيضة حوله فجاءت الرسالة موسومة باسم "لسان الدين بن الخطيب ناثرا، رحلة نُفاضَةِ الجِراب في عُلالَةِ الاغْتِراب **أنموذجا** "

ويعود اختياري لهذا الموضوع إلى بواعث ذاتية، وأخرى موضوعية، فأما الذاتية:

- فلإعجابي بالأدب الأندلسي عموما، وبتراث ابن الخطيب خصوصا، وكذا رغبتي في التعرف إلى آثار ابن الخطيب السياسي المفكر و الكاتب الشاعر.

و أما الموضوعية:

- فللإسّهام في إضاءة تراث الأندلس الأدبي، بدراسة حول نثر لسان الدين بن الخطيب بعامة ورحلته، نفاضة الجراب بخاصة، شكلا ومضمونا.

وينبغي عليّ أن أجتنب الادّعاء، بأنني أوّل من درس لسان الدين أو كتب عنه.

فالمصادر والمراجع التي حفلت بنثر هذا الأديب الفذ متعدّدة، نذكر منها:

- كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري.
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب للسان الدين بن الخطيب.
- لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري لمحمد عبد الله عنان.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

أما الدراسات الحديثة التي تناولته طبيبا وصوفيا وفيلسوفا وجغرافيا فهي كثيرة نذكر منها:

- " ابن الخطيب السَّلماني وكتابه الوصول لحفظ الصحة في الفصول "محمد العربي الخطابي.

- "الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب" عبد العزيز بن عبد الله.

- " ابن الخطيب سياسي وشاعر وفيلسوف" عبد الله عنان.

- " الإشارات الجغرافية في كتابات ابن الخطيب" حسين مؤنس.

وعلى الرغم من تلك الجهود الضخمة التي بذلت في التعريف بالفكر الخطيبي من الباحثين، فقد بقيت ثغرات عديدة تحتاج إلى دراسة وتحليل، ولهذا ارتأيت أن أدرس نثره بصفة عامة وأقف عند نص الرحلة المغربية التي قام بها، وأبرز سماتها الفنية.

وعليه قد تم تقسيم البحث إلى مدخل وخمسة فصول وخاتمة، تناولت في المدخل النص النثري في الأدب الأندلسي قبل ابن الخطيب، تتبعت فيه التطور التاريخي للنثر الأندلسي بدءا بفترة الفتح والولاة، وانتهاء بعصر ملوك الطوائف الثانية.

أما الفصل الأول فبحثت فيه حياة لسان الدين بن الخطيب وثقافته وأدبه.

وأضأت في الفصل الثاني رسائله، وقد قسمته إلى مبحثين أفردت المبحث الأول لدراسة الرسائل الديوانية و الثاني للرسائل الإخوانية.

كما خصصت الفصل الثالث لخطبه ووصيته ومناظرته، والفصل الرابع لمقاماته.

وأما الفصل الخامس فتناولت فيه رحلة نفاضة الجراب من حيث سماتها الفنية والمعنوية.

وختمت البحث بالإشارة إلى أبرز ما توصلت إليه من نتائج.

وقد استأنست في بحثي هذا، بالمنهجين التاريخي والوصفي، قصد إضاءة أسلوب ابن الخطيب، وإبراز سماته الفنية.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في دراسة تراث ابن الخطيب وفي الوقوف على أهم خصائص كتاباته النثرية.

ويسرني في ختام هذه المقدمة أن أشكر الله سبحانه وتعالى، ولن يبلغ شكري له أدنى مراتب ما يستحق، ولكن حسبي أن أقر بأن توفيقه وحده هو الذي أخرج هذا العمل إلى النور، (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) سورة النمل، الآية: 19.

و وعد الله الشاكرين بالزيادة ، فقال جلّ شأنه (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) سورة إبراهيم ، الآية :7؛ فله الحمد و الشكر.

ثم أتقدم بالشكر الوافر والتقدير للأستاذ الدكتور بومدين كروم المشرف على هذه الرسالة على ما بذله معي من جهد، وعلى كريم خلقه، فجزاه الله خيرا.

والله وليّ التوفيق

تلمسان في : 01 05 2011م

مالكي سميرة

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مدخل

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مدخل

النص النثري في الأدب الأندلسي قبل ابن الخطيب

إنّ النصّ النّثري في الأدب الأندلسي مرّ بمراحل متعاقبة، من الفتح حيث بدأ التّعبير النّثري بسيطاً بساطة النّاس، وخلوّ حياتهم من بواعث التّعقيد، إلى أن تطوّر إلى أساليب أخذت أنماطاً من الزّخرفة والتّأنّق.

ففي عهد الفتح والولاة والإمارة الأموية كان النّثر الأندلسي مقصوراً على الخطب والرّسائل، أمّا في عهد الخلافة فنهض هذا الفن نهضة محمودة، واشتهر كتاب مجيدون، ولمّا تقلّد المغاربة، مرابطين وموحّدين، زمام الحكم في الأندلس كان النّثر قد بلغ أوجَه، غير أنّه قد بدأت تدبّ فيه عوامل الانحطاط وتذوي نضارته تحت زخرف التصنّع اللّفظي.

فمن النّصوص الّتي احتفظت بها المصادر، والّتي تعود إلى فترة الفتح والولاة، النصّ الّذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتودمير أحد حكّام الأسبان، وهو كالآتي:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، من عبد العزيز إلى تدمير، أنّه نزل على الصّلح، وأنّه له عهد الله وذمّته، ألاّ ينزع عن ملكه، ولا أحد من النّصارى عن أملاكه، وأنّهم لا يقتلون، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ما تعبد ونصح، وأنّه لا يأوي لنا عدوّاً، ولا يخون لنا أمناً، ولا يكتم خبراً علمه...»[1].

لقد تضمّن هذا النص الشّروط الّتي تحفظ للنّصارى حقوقهم، وتحدد واجباتهم نحو المسلمين، بعد نزول حاكمهم على الصّلح؛ وهو نصٌّ على بساطته، يعكس واقع الكتابة في هذا العصر من وضوح المعنى ودقّة العبارة وتجنب المقدمات الطويلة والألقاب العديدة.

---

[1] ينظر:- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل:76.
- النّثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، "مضامينه وأشكاله" لعلي بن محمد، 1 : 142.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وهناك نص آخر ليوسف الفهري[1] وهو آخر ولاة الأندلس حين كتب إلى عبد الرّحمن الداخل[2]، قائلاً:

«أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكّب، وتأبُّش من تأبَّش إليك، ونزع نحوك من السُّرَّاق، وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكّدة الّتي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه – جلّ وعلا نستعينُ عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كَنَفٍ ورفاهية عيش، حتّى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا، وجنحوا إلى النّقض، والله من ورائهم محيطٌ، فإن كُنتَ تريد المال وسَعَة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأتَ إليه، أكنفُك، وأصلُ رَحِمَك، وأُنزلك معي إن أردتَ وبحيث تريد، ثم لك عهدُ الله وذِمّتُه في ألا أغْدِر بك، ولا أُمكّن منك ابن عمّي صاحب إفريقية ولا غيره»[3].

نلمس في هذا النص وضوح المعنى، وبساطة التعبير.

ولو أنّ كتب التّاريخ حفظت لنا بعض النّماذج من المراسلات لأمكننا الخروج بصورة واضحة للنّثر الأدبي في هذا العهد.

أمّا الخطابة في هذه الفترة فقد اهتم كثير من الباحثين بالخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد[4]، واعتبرها بعضهم أنموذجاً في هذه الحقبة الزّمنية، بالرّغم ممّا يدور حولها من شك في نسبتها، فلقد شكّك بعض الباحثين في نسبتها إلى طارق، ومن هؤلاء :أحمد هيكل[5]، وعمر الدقاق[6]، ومحمد عبد الله عنان[7]، وعلي بن محمد[8]، وغيرهم.

ولخص أحمد هيكل دواعي شكوكه في أربع نقاط:

---

(1) ينظر :- "البيان المغرب"، لابن عذاري المراكشي، 2: 35 ؛ كذلك الأعلام ،لخير الدين الزّركلي ،7: 236.

(2) ينظر: الكامل في التّاريخ لابن الأثير، 5: 182 والأعلام للزر كلي3:338

(3) البيان المغرب، لابن عِذاري المراكشي، 2: 45 46.

(4) هو طارق بن زياد اللّيثي بالولاء، أصله من البربر، قائد فاتح مشهور ولد نحو 50هـ، وتوفي سنة 102هـ، ينظر: الأعلام، للزر كلي، 3: 217.

(5) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 68.

(6) ملامح الشعر الأندلسي: 48 59.

(7) دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول: 47.

(8) النّثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، لعلي بن محمد، 1: 138 139.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

1. أن طارق بن زياد كان بربريا، وكان أوّل عهد بالإسلام والعربية، فلا يعقل أن يكون قد اكتسب الملكة البلاغية الرفيعة التي تؤهله لإلقاء مثل هذه الخطبة.

2. أن المصادر الأولى التي سجلت حوادث الفتح، قد خلت تماما من أي حديث عن هذه الخطبة.

3. أسلوب الخطبة الذي لم يكن معروفا في تلك الفترة، فالسجع والمحسنات البديعية، قد عاشت في عصر متأخر كثيرا عن أواخر القرن الأوّل الهجري.

4. أما "العربان" الذي ذكرهم طارق في خطبته ، فلم يكونوا في حقيقة الأمر، وحسب المصادر التاريخية، بل كان معظم أفراد جيش طارق من برابرة المغرب[1].

ونصّ الخطبة كالآتي:

«أيّها النّاس! أين المفرّ، البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصّدق والصّبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام، في مأدُبةِ اللّئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدّت بكم الأيّام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطّاغية...»[2].

وإذا كان بعض الدارسين قد شكّكوا في صحّة هذه الخطبة، فإنّ هناك باحثين آخرين أثبتوا نسبتها، ومن هؤلاء: عبد الله كنون[3]، وعلي لغزيوي[4]، وعباس الجراري [5]، وغيرهم.

---

[1]) ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 69 70.

[2]) نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للشّيخ أحمد بن محمد المقري التّلمساني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان،1: 195.

– كذلك ينظر فن الخطابة وتطوّره عند العرب، لإيليا حاوي، دار الثّقافة، بيروت، لبنان: 472 474.

[3]) النبوغ المغربي،1: 29.

[4]) أدب السياسة والحرب: 414.

[5]) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه: 53 54.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

والراجح أنّ طارقا قد خطب في جنوده خطبة أثارت حماسهم، وحثتهم على الصمود والثبات لمواجهة العدو والانتصار عليه؛ وجاءت بأسلوب يمتاز بالقوة والجزالة، والإيجاز والفصاحة ،والوضوح، والبعد عن التكلف، والخلو من الزخرف اللفظي إلا ما جاء عفويا، وهو أسلوب الخطابة في ذلك العصر.

هذا عن الخطابة في هذه الفترة، فماذا عن النثر في عهد الإمارة الأموية؟

النثر في عهد الإمارة الأموية:

يمكن تقسيم النثر في هذا العهد قسمين:

القسم الأوّل: نماذج من داخل القصر، أي من إنشاء الأمراء.

القسم الثّاني: نماذج من خارج القصر.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

القسم الأوّل ينقسم إلى فترات:

أ. فترة عبد الرّحمن الدّاخل:

اشتهر عبد الرّحمن بمكنته الأدبية وسعة ثقافته، فقد كان « فصيحاً، بليغاً، حسن التّوقيع، جيّد الفصول، مطبوع الشّعر[1]».

ومن النّصوص الّتي احتفظت بها المصادر وتعود لعبد الرّحمن الدّاخل؛ جاء رجل، يشكو إليه فقره، فأجابه بقوله: «قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعودَنَّ ولا سواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حز بك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كَيْما نستر عليك خلتك، ونكُفَّ شمات العدوّ عنك، بعد رفعك لها، إلى مالكك، ومالكنا عزّ وجلّ، بإخلاص الدّعاء، وصدق النّية»[2]؛ وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقه وبراعة أدبه.

وممّا أملاه على كاتبه إلى سليمان بن الأعرابي أحد الخارجين عليه قوله : «أمّا بعد، فدعني من معاريض المعاذير، والتّعسّف عن جادّة الطّريق، لتمدّن يدا إلى الطّاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لأزوين بنانها على رضف المعصية، نكالاً بما قدّمت يداك، وما الله بظلاّم للعبيد»[3].

هنا يأمره ألا يقدم معاذير وحججا واهية لا تشفع له، بعد أن خرج على طاعته، ويخيره من موطن القوة، بين أن يطيعه، متمسكا بحبل الجماعة، أو يجمع أصابعه ويضعها على الرضف[4]، جزاء عصيانه وتمرده .

ومن نماذج فن التوقيعات[5] ما كتبه عبد الرحمن إلى أحد عماله قائلا: «فإن يكن التقصير لك مقدما، فعِدِ الاكتفاء أن يكون لك مؤخرا، وقد علمت بما تقدمتَ، فاعتمد على أيهما أحببتَ»[6]، والمعنى أن التقصير هو الظاهر والمقدم من أفعالك، أفعالك، فليس أمامك إلا أن تقدم وعدا صادقا أن تكف عن تقصيرك، وتكتفي منه بما قدمت، فاختر إما التقصير والعزل والعقاب، وإما الرجوع إلى الجد والالتزام.

---

[1] البيان المغرب لابن عذاري المراكشي، 2: 58.
[2] نفح الطّيب، 3: 315.
[3] المصدر نفسه، 3: 315؛ البيان المغرب، 2: 58.
[4] وهي الحجارة المحماة
[5] وهو لون من الأدب يهتم بأداء المعنى والمضمون الكثير في عبارات قصيرة، تفي بالغرض في إيجاز.
[6] البيان المغرب، 2: 58 .

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ولمّا اشتدّ الكرب، يوم حربه مع يوسف الفهري، ورأى شدّة مقاساة أصحابه خطب فيهم قائلاً: «هذا اليومُ هو أُسُّ ما يُبْنَى عليه: إمّا ذُلُّ الدّهر وإمّا عزُّ الدّهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بقيّة أعماركم فيما تشتهون»[1].

نلمس ههنا تمكّن عبد الرّحمن من ناصية اللّغة، وإتقانه لأساليب البيان.

[1] نفح الطّيب، 3: 317.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ب. فترة الحكم بن هشام[1]:

كان الحكم بن هشام بن عبد الرّحمن "فصيحاً بليغاً شاعراً مجيدا"[2].

فمن نصوصه، تلك الوصيّة الّتي خاطب بها ابنه عبد الرّحمن الأوسط لما فوّض الأمر إليه وولاه عهده، يقول فيها: «إنّي قد وطدت لك الدّنيا، وذللت لك الأعداء، وأقمت أود الخلافة، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة، فاجْرِ على ما نهجت لك من الطّريقة، واعلم أنّ أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك، ثمّ عشيرتك، ثمّ الّذين يلونهم من مواليك وشِيعَتِكَ، فبهم أنزل ثقتك، وإيّاهم واس من نقمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيّتك، الّذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم، مستثقلين لأعبائهم، فاحسم عليهم ببسط العدل لكافتهم، واختيار أولي الفضل والسّداد لأحكامهم وعمالتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة، وإن رَأيتَ فيمن يرتقي من صنائعك رجلاً لم تنهض به سابقة، ويَشِفَّ بخصلة، وتطمح به نفس وهمّة فأعنه، واختبره وقدِّمه واصطنعه، ولا يَرِيبنّك خمولُ أوّلِيَّته، فإن أوّل كلّ شرف خارجيّة[3]، ولا تَدَعَنّ مجازاة المحسن بإحسانه، ومعاقبة المسيء بإساءته، فإنّك عند التزامك لهذين، ووضعك لهما مواضِعَهُما، يُرغَبُ فيك، ويُرهَبُ منك»[4].

تعد هذه الوصيّة وثيقة عظيمة القيمة والخطر، إذ هي أشبه بدستور للحكم وضعه الحكم لابنه عبد الرحمن، وبيّن له عدداً من المبادئ كمبدأ اصطناع بعض الرجال دون النظر إلى خمول أوليتهم، كل هذا بأسلوب واضح وقوي.

ج.فترة عبد الرّحمن بن الحكم[5]:

---

[1]) هو ثالث الأمراء الأمويين، كنيته أبو العاص، ويلقب بالربضيّ، ولد بقرطبة سنة 154هـ ونشأ بها إلى أن توفي سنة206 هـ
ينظر البيان المغرب، 2: 68.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، لابن عميرة الضبي، 1: 34.

[2]) البيان المغرب، لابن عذاري المراكشي، 2: 79.

[3]) الخارجي هو الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم.
- والخارجية هي الخيل التي لا عرق لها في الجودة فتخرج سوابق؛ فمعنى الخارجية هنا السبق والبروز بغير قديم.

[4]) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 128.

[5]) هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ،كنيته أبو المطرّف، ولد سنة 176هـ، وتوفي سنة 238هـ.
ينظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي،2 :80 81.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأوّل ما صدر عنه خطبة العرش الّتي ألقاها بمناسبة الجلوس على كرسي الإمارة ومبايعة الخاصّة والعامّة له عام 206هـ فقال:

«الحمد للّه الّذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلّ خلقه بالفناء، تبارك اسمه، وتعالى جدّه، وصلّى الله على محمّد نبيّه ورسوله وسلّم تسليما، وكان مصابنا بالإمام –رحمه الله ممّا جلت به المصيبة، وعظمت به الرزيّة، فعند الله نحتسبه، وإيّاه نسأل إلهام الصّبر، وإليه نرغب في كلّ الأجر والذّخر، وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله»[1].

يبدو عبد الرحمن بن الحكم في هذه الخطبة أديبا بارعا، حسن التثقيف، وكاتبا بليغا مشرق البيان.

د. فترة محمّد بن عبد الرّحمن الأوسط[2]:

كان محمّد بن عبد الرّحمن الأوسط فصيحا بليغا[3]، ومن رسائله الّتي تؤكّد ذلك، رسالة بعث بها إلى عبد الملك بن أميّة، وقد ولاّه الكتابة اصطناعا له وعائدة عليه، يقول فيها: «قد فهمنا عنك، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك، لكن اصطناعا لك، وعائدة عليك، وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب، فتخيّر منهم من تثق وتعتمد عليه، ونحن نعينك على أمرك بتفقّد كتبنا والإصلاح عليك، إلى أن تركب الطّريقة، وتبصر الخدمة، إن شاء الله تعالى»[4].

ففي هذه الرّسالة تفنّن في استخدام حروف الجرّ، وإيرادها في تقابل بارع، كذلك تلك الجمل القصار المتتابعة الّتي يدعو بها عبد الملك بن أميّة إلى قبول وظيفة الكتابة، ويتيح له الاستعانة بذوي الخبرة لمساعدته.

القسم الثّاني: يتعلّق بإنشاء كتاب من خارج القصر، أقتصر منه على رسالة من الوليد بن عبد الرّحمن بن عبد الحميد بن غانم، من وزراء الأمير محمد بن عبد الرّحمن (ت. 272هـ)[5]؛ كتبها إلى الأمير محمد يقول فيها: «عظُمت نعمة

---

[1] البيان المغرب، 2: 90.

[2] هو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، كنيته أبو عبد الله، ولد سنة 207هـ، وتوفي سنة 272هـ ينظر البيان المغرب،2 : 93 94.

[3] المصدر نفسه، 2: 107.

[4] المصدر نفسه، 2: 108.

[5] ينظر النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، " مضامينه و أشكاله"، لعلي بن محمد، 1: 164.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الأمير، أبقاه الله، عن الشّكر، وجلت أياديه عن النّشر، فمتى رمت شكر أدنى ما غمرني، وحمد أيسر ما اشتمل عليّ، تكاءدني[1] الشّكر، وعجز بي الجهد، ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ في القول، والاجتهاد في العمل، إذ لم أرهما يدوران إلاّ على نعمة أزلفت، ويقتصران إلاّ على زيادة انتظرت، وأنا بهما مخيّم، وعليهما معوّل، والله النّاقل لعباده، بطاعتهم له، وشكرهم أيادِيَهُ، من دار الشّقوة إلى دار السّعادة، ومن نصب العاجلة إلى راحة الآجلة»[2].

في هذه الرّسالة يطلب ابن غانم، بطريقة الإشارة والتّلميح، توليته منصباً من مناصب الدّولة، فاعتمد على أدوات فنية زيّن بها نصّه.

وممّا سبق يتبيّن أنّ النّثر الأندلسي في فترة الإمارة لم يعد كما كان من قبل نثراً بسيطاً، وإنّما أصبح نثراً فنيّاً إعلاميا تبليغياً يوصّل أمراً أو نهياً أو نصيحة، كما أخذ أصحابه يحرصون على استخدام الكثير من الأدوات الفنية، والعبارات الرّقيقة المعبّرة، على أنّه بالرغم من تقدمه وتطوّره هذا، لم يرتق إلى ما ارتقت إليه الكتابة في فترة الخلافة؛ فكيف كان التّعبير النّثري في تلك الحقبة الزّمنيّة المتقدّمة؟!

النّثر في عهد الخلافة :

قبل الحديث عن النّثر في عهد الخلافة نشير إلى أنّ من تولّى الحكم فيه هو عبد الرّحمن الثّالث[3]؛ ثم جاء بعده ابنه الحكم المستنصر[4]، وظلّت الأندلس حتّى سنة 366هـ دولة قويّة وموحّدة، واستحقّت تلك الفترة الّتي سعدت بحكم النّاصر والمستنصر أن تسمّى العهد الذّهبي للحكم الأندلسي.

وقد ظهر نوع جديد من النّثر لم تعهده الكتابة النّثرية من قبل هو النّثر التّأليفي.

---

(1) تكاءدني: شقّ عليّ.

(2) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 193.

(3) لقب بالناصر لدين الله، ولد سنة 277هـ ، وبويع سنة 300هـ، وأعلن الخلافة سنة 316هـ، وهو أول من لقب بأمير المؤمنين في الأندلس، ولما توفي خلفه ابنه الحكم الثاني.
ينظر البيان المغرب،2 :156.

(4) هو الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، بويع سنة 350هـ، وتوفي سنة 366 هـ.
ينظر البيان المغرب،2 :233.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

1. **النّثر الفنّي**: هو ذلك اللون من التعبير الذي يتفنن فيه كاتبه لإثارة المتعة الفنية في نفس القارئ، فهو كلام يشتمل على جمال في صياغته وأسلوبه؛ ويشمل النثر الفني المقالة والقصة والمثل والرسالة والخطبة والترجمة والنقد الأدبي.

ومن النّماذج النّثرية في عهد الخلافة نذكر على سبيل المثال، ذلك المنشور[1] الّذي وجّهه عبد الرّحمن الثّالث إلى حكّام الأقاليم لإخبارهم باتخّاذه لقب الخليفة، وإلزامهم مخاطبته به، ونصّه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد، فإنّا أحقّ من استوفى حقّه، وأجدر من استكمل حظّه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه؛ للّذي فضّلنا به وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسّر على أيدينا إدراكه، وسهّل بدولتنا مَرَامه؛ وللّذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعُلُوِّ أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضّل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدّعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عندنا ووردها علينا بذلك؛ إذ كلّ مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتّسم بما لا يستحقّه، وعلمنا أنّ التّمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فأمُرِ الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجرِ مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان»[2].

النصّ مقتضب وموجز، وهو عبارة عن منشورحاول عبد الرّحمن النّاصر من خلاله إخبار حكّام الأقاليم باتّخاذه لقب الخلافة، وإلزامهم بمخاطبته به، واعتمد على أسلوب بسيط وألفاظ جزلة، ورغم وجود السجع غير المتكلف والصنعة غير المقصودة، فهي رسالة ديوانية تحمل غرضا محددا واضحا، لا حاجة فيه إلى الإطالة والزخارف اللفظية والبديعية.

وهكذا فهذه الرسالة تمثل النثر الأندلسي في بداية عصر الخلافة الأموية في الأندلس بلغتها القوية وألفاظها الجزلة، وأسلوبها ذي السجع غير المتكلف.

---

[1] المنشور نوع من الرّسائل، لا تختلف عنها إلاّ في أنّها لا تقتصر على مخاطبة فرد أو جماعة قليلة، وإنّما تهدف إلى إعلام جمهور واسع من النّاس بأوامر الحاكم أو تبليغهم معلومات ما.- ينظر النّثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، " مضامينه وأشكاله"، لعلي بن محمد، 1: 181.

[2] البيان المغرب، لابن عذارى المراكشي، 2: 198.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ومن الخطب، تلك الخطبة الّتي ألقاها الفقيه منذر بن سعيد البلّوطي[1]، لمّا وفد على الخليفة النّاصر رُسُل ملك الرّوم وصاحب القسطنطينية سنة 338هـ بقصر قرطبة، يطلبون المسالمة ويحملون الهدايا، فاحتفل النّاصر باستقبالهم احتفالا تاريخيّا، وقام الخطباء

والشّعراء بين يديه يعظّمون أمر الإسلام والخليفة، وكان أبو علي القالي قد وقف خطيباً في هذه المناسبة، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه وسلّم، ثمّ أرتج عليه، فانقطع وبُهت ووقف ساكتا، فلمّا رأى ذلك منذر بن سعيد البلّوطي –وكان ممّن حضر في زمرة الفقهاء قام غير مدعوٍّ، وقال:

«أمّا بعد حمد الله والثّناء عليه، والتّعداد لآلائه، والشّكر لنعمائه، والصّلاة والسّلام على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه، فإنّ لكلّ حادثة مقاما، ولكلّ مقام مقالا، وليس بعد الحقّ إلاّ الضّلال، وإنّي قد قمتُ في مقام كريم، بين يديْ ملك عظيم، فأصغوا إليّ معشَرَ الملأ بأسماعكم، وافقهوا عنّي بأفئدتكم.

إنّ من الحقّ أن يُقال للمحقّ صدقت، وللمبطل كذبت، وإنّ الجليل تعالى في سمائه، وتقدّس بصفاته وأسمائه، أمر كَلِيمَهُ موسى صلّى الله على نبيّنا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أن يُذكّر قومه بأيّام الله جلّ وعزّ عندهم، وفيه وفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسوة حسنة.

وإنّي أذكّركم بأيّام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين الّتي لمّت شعثكم، وأمّنت سِربكم، ورفعت قوّتكم، بعد أن كنتم قيلا فكثّركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلّين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيّام ضربت الفتنةُ سُرادقها على الآفاق وأحاطت بكم شُعَلُ النّفاق، حتّى صرتم في مثل حدقة البعير[2]، من ضيق الحال ونكد العيش والتّغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدّة بالرّخاء، وانتقلتم بيُمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء.

أنشدكم بالله معاشر الملإ، ألم تكن الدّماءُ مسفوكةً فحقنها، والسبلُ مخوفةً فأمّنها، والأموالُ منتهبةً فأحرزها وحصّنها؟ ألم تكن البلادُ خراباً فعمرها، وثغورُ المسلمين مهتضمةً فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيَهُ

---

[1] منذر بن سعيد البلوطي (ت 355هـ)، خطيب مصقع و شاعر بليغ.
- ينظر تاريخ قضاة الأندلس، لأبي الحسن النّباهي:66. والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي، 2: 250.

[2] مثل يضرب في حقارة الشّيء وقلّته.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

جمعَ كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتّى أذهب الله عنكم غيظَكم، وشفى صدورَكم، وصرتم يداً على عدوّكم، بعد أن كان بأسُكم بينكم.

فأنشدكم الله، ألم تكن خلافتُه قُفْلَ الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها؟ ألم يتلافَ صلاحَ الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يَكِلْ ذلك إلى القُوَاد والأجناد، حتّى باشره بالقوّة والمهجة والأولاد، واعتزل النّسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الرّكون إلى الرّاحة وهي مطلوبة، بطويّة صحيحة، وعزيمة صريحة،...متحمّلاً للنّصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التّعب، حتّى لانت الأحوال بعد شدّتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدّتها... فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلّمِ أمير المؤمنين لِشعَثِكم على أعدائه أعوانا، حتّى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفودُ الرّوم وافدةً عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين متّجهةً إليه وإليكم، يأتون من كلّ فجّ عميق، وبلد سحيق، للأخذ بحبلٍ بينه وبينكم جملةً وتفصيلا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، ولن يُخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده...فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطّاعة لخليفتكم وابن عمّ نبيّكم، صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ من نزع يدا من الطّاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدّين، فقد خسر الدّنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين...وقد علمتم ما أحاط بكم في جَزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، السّاعين في شَقّ عصاكم، وتفريق مِلّتكُم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهَتْكِ حريمكم، وتوهين دعوة نبيّكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النّبيّين والمرسلين، وأقول قولي هذا، وأختمُ بالحمد لله ربّ العالمين، مستغفرا الله الغفور الرّحيم، فهو خير الغافرين»[1].

إن ابن سعيد البلوطي خطيب بليغ مصقع، فهذه الخطبة التي ارتجلها خطبة طويلة في حجمها بليغة وبديعة في مضمونها، سواء أكان ذلك بألفاظها الجزلة وعباراتها المتينة أم بمحسّناتها البديعية الّتي أضفت رونقا خاصا [2].

---

[1] ينظر نفح الطيب، للمقري، 1: 288، الأدب الأندلسي، أحمد هيكل: 279،
– كذلك الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النّهضة العربية للطباعة والنّشر، بيروت، ط2، 1976 :444.

[2] النثر الأدبي الأندلسي، لعلي بن محمد، 1: 192.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

2. النّثر التّأليفي:

لقد ألّف الكتاب- في هذه الفترة في مجالات مختلفة، في الأدب، والشّروح الأدبية، واللّغة والمعاجم، وكتب التّراجم، ومعاجم الرّجال، وكتب التّاريخ والجغرافية، وكتب الحديث والفقه وأصول الدين، وفي الفلسفة[1].

ففي الأدب وما يتّصل به: ألّف ابن عبد ربّه (246هـ 328هـ) كتاب "العقد الفريد"، وأبو علي القالي البغدادي (288هـ 356هـ) كتاب "الأمالي"، وأبو الفتح بن عيشون (ت: 338هـ) كتاب "الشّعراء من الفقهاء بالأندلس"، وابن سعيد الخير المرواني (ت: 340هـ) "أخبار الشعراء بالأندلس" وعثمان بن ربيعة (ت: 310هـ) كتاب "طبقات الشعراء بالأندلس"، ومحمد بن مغيث الأنصاري (ت: 352هـ) كتاب "شعر الخلفاء من بني أميّة"، أمّا ابن الفرج الجياني (ت: 359هـ) فألّف كتاب "الحدائق"[2].

لقد عرف النّثر في عهد الخلافة ازدهاراً وتقدّماً ورقيّاً، في الصّياغة، واتسعت مجالاته اتساعا شاسعا.

النّثر في عهد ملوك الطّوائف:

لقد حظي النّثر في هذه الفترة بعناية واضحة، جدّة وغزارة، كما عرف لونا جديدا، هو النّثر القصصي.

وقد شارك في هذا النّوع الجديد من النّثر كلّ من ابن شهيد[3] في رسالته "التّوابع والزّوابع" وابن حزم[4] في كتابه "طوق الحمامة".

---

(1) الأدب الأندلسي، أحمد هيكل: 210 وما بعدها.
– النثر الأدبي الأندلسي، لعلي بن محمد، 1: 199.

(2) الأدب الأندلسي، أحمد هيكل: 283.
– النثر الأدبي الأندلسي، لعلي بن محمد، 1: 199.

(3) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، الأشجعي
ينظر- وفيات الأعيان، لابن خلكان، ت/ إحسان عباس، دار صادر، 1968، 1: 116 والأدب الأندلسي والمغربي، محمد رضوان الداية: 108.

(4) هو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بقرطبة سنة 384هـ، توفي سنة 456هـ، ينظر المغرب في حلى المغرب، 1: 354.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فأما ابن شهيد فقد جعل رسالته "التّوابع والزّوابع"[1] معرضاً لإظهار براعته في الكتابة.

وما قاله في رسالته: «فضرب زهير الأدهم بالسّوط، فسار بنا في قننه[2] وسرنا حتّى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة[3] فشقّ سمعي قرع النّواقيس، فصحت: من منازل أبي نواس، وربّ الكعبة العليا، وسرنا نجتاب أديراً وكنائس وحانات، حتّى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك[4] فوائحه، فوقف زهير ببابه وصاح: سلام على أهل دير حنة، فقلت لزهير:

أوقد صرنا بذات الأكيراح[5]؟ فقال: نعم،...»[6].

إنّ ابن شهيد يسرد قصة خيالية يصف فيها رحلة في عالم الجنّ، قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء، وناقشهم وناقشوه وأنشدهم وأنشدوه، وهناك استطاع أن ينتزع لنفسه شهادات بتفوقه واعترافات بامتيازه من أساطين الشعر، وجهابذة الكتاب، كلّ هذا مع الكثير من الفكاهة والدّعابة[7].

وأسلوبه يمثّل أسلوب النّثر الفنّي في فترة الفتنة بالأندلس أصدق تمثيل، فهو يميل إلى المحسّنات البديعية متأثّرا في ذلك بطريقة الجاحظ وابن العميد وبطريقة بديع الزّمان الهمذاني.[8]

وأما ابن حزم، فقد تناول في كتاب "طوق الحمامة" عاطفة إنسانية ألا وهي فلسفة الحب، وجعله في ثلاثين باباً، تتبّع فيها الحبّ في نشأته، وتطوّره وأغراضه ودرجاته وأنواعه ومسعداته ومنغصاته[9] ، ومنه قوله :

« ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبّة بالوصف دون المعاينة وهذا أمر يترقّى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسّهر على غير الإبصار، فإنّ للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في

---

1) تسمّى أيضا شجرة الفكاهة.
2) سننه ونهجه.
3) مكان ورد ذكره في شعر أبي نوّاس.
4) تعبق.
5) لفظة سريانية، معناها الكوخ الصّغير يكون قرب الدّير، ولقد وردت في شعر أبي نوّاس.
6) رسالة التوابع والزوابع، ت/ بطرس البستاني: 105.
7) الأدب الأندلسي، أحمد هيكل : 420.
8) المرجع نفسه : 434.
9) المرجع نفسه: 442 .

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

النّفس ظاهراً، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار، فيكون سبباً للحبّ واشتغال البال، وهذا كلّه قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بنيان هار على غير أس، وذلك أنّ الّذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير، لابدّ له إذ يخلو بفكره أن يمثّل لنفسه صورة يتوهّمها، وعيناً يقيمها نصب ضميره لا يتمثّل في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها، فإن وقعت المعاينة يوما ما، فحينئذ يتأكّد الأمر أو يبطل بالكلية»[1].

وممّا قاله كذلك: « ومن بعض صفات الحبّ الكتمان باللّسان، وجحود المحب إن سُئل، والتّصنّع بإظهار الصّبر، وأن يرى أنّه عزهاة[2] خلي، ويأبى السرّ السرّ الدّقيق ونار الكلف المتأجّجة في الضّلوع إلاّ ظهوراً في الحركات والعين، ودبيباً كدبيب النّار في الفحم، والماء في يبس المدر[3]، وقد يمكن التموّه في أوّل الأمر على غير ذي الحسّ اللّطيف، وأمّا بعد استحكامه فمحال...»[4].

من هنا نلاحظ أنّ ابن الحزم لا يهتم بالصنعة، ولا يتكلّف في إيرادها، وهذا على غير نهج معاصريه الّذين اهتمّوا بالمحسّنات البديعية.

ومن الّذين دبّجوا الرّسائل ابن زيدون[5] ومن رسائله: الرّسالة الجدّية، والهزلية، والبكرية، والمظفّرية، و العامرية، و العبّادية[6].

وأهمّ الرّسائل شهرة رسالتاه: الجدّية، والهزلية؛ كتب الرّسالة الجدّية في السّجن، يستعطف بها أبا الحزم بن جهور[7] ليعيد إليه حريّته المسلوبة يقول فيها:

«يا مولاي وسيّدي الّذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حدّ العزم، وَارِيَ زند الأمل، ثابت عهدِ النّعمة، إنْ سلبتني –أعزّك الله لباسَ إنعامك، وعطّلتني من حَلْي إيناسك، وأظمأتني إلى برود إسعافك، ونفضت بي كفَّ حياطتك، وغضَضْتَ عنّي طرف

---

[1] طوق الحمامة، ابن حزم: 18.
[2] يقال هو عزهاة عن النّساء، إذا لم يردهن ورغب عنهن.
[3] المدر: قطع الطّين اليابس.
[4] طوق الحمامة: 33.
[5] وهو أبوالوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون، توفي سنة463هـ
- ينظر الأعلام، للزركلي، 1: 158.
- ابن زيدون، الطيب العشاش، جعفر ماجد: 18.
[6] هذه الرّسائل في ديوان ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر، 1967: 634 .776
[7] هو أبو الحزم بن جهور، حكم قرطبة من 422هـ إلى 435هـ
ينظر البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، 3 185.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك، وأحسَّ الجمادُ باستنادي إليك فلا غرو: قد يَغَصُّ بالماء شاربُه، ويقتلُ الدواءُ المستشفيَ به، ويُؤتى الحذرُ من مأمنه، وتكون منيّةُ المتمني في أُمنِيّته...»[1].

والرسالة الهزلية كتبها على لسان ولاّدة[2] لمنافسه في حبّها الوزير أبي عامر ابن عبدوس، وفيها يسخر منه سخرية تصل إلى حدّ الهجاء المقذع، وهي تذكّرنا برسالة "التّربيع والتّدوير" التي كتبها الجاحظ في السّخرية والتهكّم بأحد كتاب عصره وهو أحمد بن عبد الوهاب[3].

فأسلوب ابن زيدون يذكّر بأسلوب الجاحظ، في صيغ الدّعاء، وتعدّد النّعوت للشّيء الواحد، واستخدام حروف الجرّ، وعذوبة الألفاظ، وغزارة المعاني.

النّثر في عصر المرابطين:

في هذا العصر اعتمد الكتّاب السجع في كتاباتهم ، وأدخلوه في كتابتهم التاريخية ، وأهم الظواهر الأدبية التي برزت ظاهرة الرسائل الدينية التي تُرسل إلى ضريح الرسول الكريم (صلّى الله عليه وسلّم)، وأبرز كاتب انماز بهذا اللون الأدبي و الديني معا أبو عبد الله ابن أبي الخصال[4] ومن نثره قوله: «الحذِر أعزّك الله، يؤتى من الثّقة، والحبيب يؤذى من المِقَة وقد كنت أرضى من ودّك وهو الصّبح بلمحة، واقتنع من ثنائك، وهو المسك بنفحه، فما زلت تعرضني للامتحان وتطالبني بالبيان، وتأخذني بالبرهان، وأنا بنفسي أعلم، ولمقداري أحوط وأحزم، والمعيدي يسمع به ولا يرى، وإن وردت أخباره تترى، فشخصه مقتحم مزدرى، لا سيما ممّن لا يجلي عن نفسه ناطقاً، ولا يبرز سابقاً، فتركه والظّنون ترجمه، والقال والقيل يقسمه والأوهام تحلّه وتحرمه...»[5].

---

[1] الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق: 458 459.

[2] ولاّدة بنت المستكفي بالله، وهي شاعرة، أديبة، كانت تخالط الشّعراء. وتساجل الأدباء، توفيت سنة 484هـ.
– ينظر بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ابن عميرة الضبي2: 733 .

[3] دراسات في الأدب الأندلسي،إحسان عبّاس، وداد القاضي، ألبير مطلق، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1976: 150.

[4] وهو أبو عبد الله، محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن أبي الخصال الغافقي، توفي سنة 540 هـ
- ينظر الأعلام، الزركلي، 7: 95 .

[5] الذّخيرة 3 /2: 788.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

في هذا النص نجد الكاتب يستخدم السّجع، كما أنّه يستعين بالأمثال العربيّة في أكثر من موضع كقوله: "الحَذِرُ يُؤْتَى من الثِّقَة"؛ وهو المثل المشهور "الحَذِرُ يُؤْتَى مِن مَأْمَنِه".

وهو في كتابته مبرهن عن طول باع، وعلوّ نجم في أفق الصّناعة النّثريّة.

النّثر في عصر الموحّدين:

أمّا في عهد الموحّدين، فقد برز عدد من الكتّاب، كأبي الفضل جعفر المعروف بـ"ابن محشُوّة"، وأبي عبد الله محمّد بن عبد الرّحمن بن عياش، وأبي القاسم عبد الرّحمن القالمي [1].

ومما ينسب إلى ابن تومرت وصيّته التي قال فيها ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلّى على محمّد نبيّه (صلّى الله عليه وسلّم) ثمّ ترضّى عن الخلفاء الرّاشدين رضوان الله عليهم، وذكر ما كانوا عليه من الثّبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأنّ أحدهم كان لا تأخذه في اللّه لومة لائم، قال:

«...فانقرضت هذه العصابة –نضّر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمّة نبيّها وخبطت النّاس فتنةٌ تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلا مُداهناً؛ فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدّنيا، وأمالوا وجوه النّاس إليهم...».

«ثمّ إنّ الله –سبحانه وله الحمد مَنَّ عليكم أيّتها الطّائفة بتأييده، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيّض لكم من ألفاكم ضُلّالاً لا تهتدون، وعُميا لا تبصرون، لا تعرفون معروفا، ولا تُنكرون منكرا، قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل، وزيّن لكم الشّيطان أضاليل وتُرّهاتٍ أُنَزِّه لساني عن النّطق بها، وأربأ[2] بلفظي عن ذكرها؛ فهداكم الله به بعد الضّلالة، وبصّركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزّكم بعد الذّلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين[3]، وسَيُورثكم أرضَهم وديارهم؛ ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبُهم؛ وما ربّك بظلاّمٍ للعبيد، فجدّدوا للّه سبحانه خالص نيّاتكم، وأروه من الشّكر قولاً وفعلاً ما

---

[1] ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب: 190.
[2] ربأ بفلان عن الشّيء: رفعه ونزّهه.
[3] المارقون: الخارجون عن الدّين أو الجماعة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

يُزكّي به سعْيكُم، ويَتَقَبَّلُ أعمالكم، وينشر أمركم، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوّكم، فإنّكم إن فعلتم ذلك هَابَكم النّاس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحقّ على أيديكم، وإلاّ تفعلوا شَمِلكم الذلّ وعَمَّكم الصَّغار[1]، واحتقرتكم العامّةُ، فَتَخَطَّفَتْكُم الخاصّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرّأفة بالغلظة، واللّين بالعنف، واعلموا مع هذا أنّه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأمّة إلاّ على الّذي صَلُحَ عليه أمرُ أوّلها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرتَه وعلانيته، فرأيناه في ذلك كلّه ثبتاً في دينه، متبصّراً في أمره، وإنّي لأرجو ألاّ يُخلف الظّنّ فيه، وهذا المُشار إليه هو عبد المؤمن، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربّه، فإن بدّل أو نكص[2] على عقبه أو ارتاب في أمره، ففي الموحّدين –أعزّهم الله بركةٌ وخيرٌ كثير، والأمرُ أمر الله يقلّده من شاء من عباده»[3].

في هذه الوصية استدعى ابن تومرت أصحابه، وأخذ يعظهم وينصحهم ويحذرهم من الافتراق، ويوصيهم بمتابعة عبد المؤمن بن علي ومبايعته.

وأسلوبه يمثل أسلوب النثر الفني في تلك الفترة[4]، فهو يحرص على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويكثر من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة، ويبالغ في إبراز الصور البيانية، ويهتم باستعمال المحسنات البديعية.

---

[1] الصّغارُ: الذلُّ والهوان.

[2] نكص: ارتدّ.

[3] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لأبي محمّد عبد الواحد المراكشي: 147.

[4] ينظر النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري ، رضا عبد الغني الكساسبة :166.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

النثر في عهد ملوك الطوائف الثانية : (الدولة النصرية)

لقد نضج النّثر الأدبي في الأندلس خلال القرن الثّامن الهجري، ونبغ العديد من الكتّاب، منهم : أبو بكر الرّندي[1]، وابن خاتمة الأنصاري الأندلسي[2]، الذي كانت تربطه بلسان الدّين صداقة وعلاقة أدبيّة، فتبادلا رسائل المودّة في أكثر من مناسبة.

فهذا ابن خاتمة يوجّه رسالة إلى ابن الخطيب، بعد أن نوى مغادرة الأندلس إلى المغرب، جاء فيها:

«و إلى هذا يا سيّدي، ومحلّ تعظيمي وإجلالي، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم، وضاعف في العزّ درجات ارتقائكم، فإنّه من الأمر الّذي لم يغب عن رأي المقول، ولا اختلف فيه أرباب المحسوس والمعقول، أنّكم بهذه الجزيرة شمس أفقها، وتاج مفرقها، وواسطة سلكها، وطراز ملكها، وقلادة نحرها، وفريدة دهرها، وعقد جيدها المنصوص، وكمال زينتها على المعلوم والمخصوص، ثمّ أنتم مدار أفلاكها، وسرّ سياسة أملاكها وترجمان بيانها، ولسان إحسانها...»[3].

وهناك أيضا أديب عرفته الأندلس في هذه الفترة ، هو الكاتب البارع: ابن الجياب الغرناطي[4]، ومن إنشائه ما كتبه على لسان أبي الحجّاج يوسف إلى سلطان المغرب أبي عنان فارس، في العزاء بوفاة والده أبي الحسن المريني، ومنه قوله: «أمّا بعد حمد الله الواحد القهّار الحيّ القيّوم، حياة لا تتقيّد بالأعصار، القادر الّذي كل شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار، الغنيّ في ملكوته، فلا يلحقه لاحق الافتقار، المريد الّذي بإرادته تصريف الأقدار وتقدير الآجال والأعمار، العالم الّذي لا تعزب عن علمه خفايا الأسرار، وخبايا الأفكار، مالك الملك وأهله، ومدبر الأمور بحكمته وعدله، تذكرة لأولي الألباب وعبرة لأولي الأبصار، خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار، والصّلاة والسّلام على سيّدنا

---

(1) هو أبو بكر محمد بن الحكيم اللخمي الرندي، توفي سنة 750هـ- ينظر الإحاطة في أخبار غرناطة،2 : 272.

(2) هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري الأندلسي.- ينظر نثر فرائد الجمان، لابن الأحمر: 331.

(3) نفح الطّيب، 6 :28.

(4) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن الجياب الغرناطي، ولد سنة 673هـ وتوفي سنة 749هـ- ينظر الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: 183.

- الإحاطة،4: 125.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ومولانا محمّد رسوله المصطفى المختار الّذي نهتدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدارس والاحلاء والإمرار، في الشّدة والرّخاء، والسّراء والضّراء...»[1].

هكذا كان ابن الجياب في نثره، يكثر من التّمجيد والثّناء، مستخدما السّجع مكثراً منه، على أن كتابته كانت عموما سهلة الألفاظ واضحة المعاني.

وأخيرا يمكن القول أن النثر الأندلسي في فترة الفتح والولاة كان يتسم بالبساطة في التعبير، والأسلوب المطلق المباشر، ولا يلتزم أصحابه سجعا ولا توشية، إلا ما جاء عفويا؛ وأمّا في فترة الإمارة فأصبح نثرا فنيا، له خصائصه، وأساليبه، إلا أن الشخصية الأدبية الأندلسية لم تكتمل إلا في فترة الخلافة، فإلى جانب النثر الفني ظهر نوع آخر من النثر، هو النثر التأليفي، وعرف النثر في فترة الطوائف لونا جديدا هو النثر القصصي ، وفي عصر المرابطين أخذ النثر الفني يجنح إلى المبالغة في استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية وما يترتب على ذلك من تنميق وزخرفة، وفي عصر الموحدين عادت الصبغة الدينية في الأندلس كما برز نوع جديد من القصص الخيالي الفلسفي .

وفي عهد بني الأحمر أخذ النثر ميزاته الخاصة به، من حيث التصوير الفني، والتورية والسجع، وأخذ الأدباء يتفننون بأشكال البديع المختلفة، والمحسنات اللفظية.

هذه هي صورة النثر الأندلسي حتى القرن الثامن الهجري عهد لسان الدين ابن الخطيب.

أما عن لسان الدّين بن الخطيب الّذي نهض بفنّ الكتابة في هذا القرن واشتهر في المشرق والمغرب، فهو محور هذه الدّراسة، ومجالها الرّحيب.

[1] نفح الطّيب، 7: 6.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الفصل الأوّل

لسان الدين
حياته وثقافته وأدبه

المبحث الاول: نسبه و مولده

المبحث الثاني: ثقافته و مؤلفاته

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

المبحث الأول: نسبه و مولده:

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلْمَاني، نسبة إلى (سلمان) وهو حيّ من مراد من عرب اليمن القحطانيين، يُكنّى أبا عبد الله، ويلقب بلسان الدين[1]، وهو لقب مشرقيّ، وبذي الوزارتين، لجمعه بين الوزارة والكتابة، أو السيف والقلم، وكان يعرف أيضا بذي العمرين، لاشتغاله بتدبير الحكم في النهار، وبالتصنيف في الليل، والخطيب لقب جده الأعلى سعيد، الذي كان عالما وَرِعًا وخطيباً بِلَوْشَةَ، فعرف به أبناؤه من بعده، « وجدّه سعيد هو أوّل من استوطن لوشة، ثمّ انتقل إلى غرناطة، وتزوّج من إحدى قريبات زوجة السّلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف النّصري، ممّا أحكم الصّلة بينه وبين القصر».[2]

ولد أبوه[3]عبد الله بغرناطة عام 672هـ/1302م، ونشأ بها وتقرّب من القصر وخُصَّ بلقب الوزارة، ثمّ ترك غرناطة وانتقل إلى "لوشة"؛ وفي مدينة لوشة ولد ابنه لسان الدّين محمد في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة 713هـ (16 نوفمبر سنة 1313م)[4]. ولمّا عاد أبوه إلى غرناطة ليخدم في قصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج النّصري، عاد معه لسان الدّين، فنشأ بها، وتأدّب على شيوخها، فدرس اللغة والشّريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر مثل أبي عبد الله بن الفخّار الإلبيري، وأبي القاسم محمد بن علي الحسيني السّبتي، وشمس الدّين بن جابر الوادي آشي، وأبي عبد الله بن مرزوق، وأبي البركات بن الحاج

---

1) تنظر ترجمة ابن الخطيب وأخباره في: كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة، 4 : 439.
- كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، 7: 636 638.
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، لابن خلدون: صفحات متفرقة.
- نثير فرائد الجمان، في نظم فحول الزمان، لابن الأحمر: 242.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، 3: 469.
- جذوة الاقتباس لابن القاضي: 187.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري، 7: 5 195.
- أزهار الرياض في أخبار عياض، للمقري، 1: 186 238.
- الأعلام للزّركلي، 6: 135.
- لسان الدين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان: 27.

2) لسان الدين بن الخطيب وكتاب الإحاطة، يوسف طويل، مجلة عصور، العددان 4 5، وهران، 65.

3) تنظر ترجمة أبيه في ريحانة الكتّاب، ونجعة المنتاب، لابن الخطيب، 2: 392 393؛ والإحاطة 3: 292، ونفح الطّيب 7: 13.

4) لسان الدين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان: 32.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

البلفيقي. وأخذ الأدب والشّعر عن أبي عبد الله بن الحكيم اللّخمي، وعن أبي الحسن بن الجيّاب، ونهل الطّب والفلسفة من معين الشّيخ أبي زكريّا بن هذيل[1].

وفي عام 741هـ التحق لسان الدّين بديوان الكتّاب أو ديوان الإنشاء؛ خلفاً لأبيه الّذي توفّيَ قتيلاً في موقعة طريف[2] في ذلك العام، وقد ثقف ابن الخطيب صناعتي النّظم والنّثر مسترشداً بأستاذه ابن الجيّاب الّذي كان رئيس ديوان الإنشاء منذ عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل، ثمّ استمرّ في رياسته في عهد ولده أبي عبد الله محمد، ثمّ في عهد أخيه أبي الحجاج يوسف إلى أن توفيّ بالوباء الجارف (الطّاعون) سنة 749هـ[3]، فخلفه ابن الخطيب في رياسة الكتّاب، ومنحه أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة، واستمرّ ابن الخطيب في الوزارة بعد مقتل السلطان أبي الحجاج سنة 755هـ، أي في خلافة ابنه الغنيّ بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف، ولكن في 28 من رمضان سنة 760هـ، خُلِعَ الغنيّ بالله، ففرّ إلى وادي آش، وسعى ابن الخطيب إلى مصانعة السلطان الجديد إسماعيل بن أبي الحجاج يوسف الّذي خلع أخاه محمداً الغنيّ بالله، فلم يستطع، وقد حرّض حسّاد ابن الخطيب السلطان عليه فاعتقله؛ ثمّ سرّحه بطلب من سلطان المغرب أبي سالم المريني الّذي استقدمه مع سلطانه االمخلوع، واجتازا البحر إلى عدوة المغرب في السادس من محرم سنة 761هـ[4].

وفي السادس من ذي القعدة من عام 762هـ توفيت زوجة ابن الخطيب، فدفنها بالبستان المتّصل بداره بمدينة سلا، ووصفها بواحدة نساء زمانها، وقال فيها هذا الشّعر الّذي كُتِب على ضريحها:

رُوِّع بَالي وَهَاجَ بَلْبَالي ۞ وسَامني الثُّكْلُ بَعْدَ إقْبَالِ
ذَخِيرَتي حِينَ خَانَني زَمَاني ۞ وعُدَّتِي في اشْتِدادِ أهْوالِ
حَفَرْتُ في دَاري الضَّرِيحَ لَهَا ۞ تَعَلُّلاً بالمُحال في الحـــالِ
وغِبْطَة توهِمُ المقامَ معـــي ۞ وكيفَ لي بَعْدها بإمهالِ

1) قام ابن الخطيب بترجمة شيوخه في آخر كتابه "الإحاطة"، 4: 457.
2) معركة كبرى بين العرب والأسبان سنة 741هـ، (تنظر في القطوف اليانعة من ثمار جنّة الأندلس الإسلامي الدّانية، لعبد الله أنيس الطّباع: 240).
3) الأدب الأندلسي والمغربي (أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي)، محمد رضوان الدّاية: 256.
4) لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان: 55.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

سَقَا الحَيا قبْركِ الغريــبَ ❁ ولازالَ مناخاً لكلِّ هطّـال
قد كنتِ مالي لما اقتضى زَمنِي ❁ ذهاب مالي وكنتِ آمالي
أمّا وقد غاب في تراب سلا ❁ وجهكِ عنّي فلست بالسّالي
والله حزني لا كان بعد على ❁ ذاك الشّباب الجديد بالبالي
فانتظريني فالشّوق يقلقني ❁ ويقتضي سرعتي وإعجابي
وَمَهِّدي لِي لَدَيْكِ مُضْطَجَعاً ❁ فَعنْ قريبٍ يكونُ تِرْحالي
واسمكِ مقلوبه يبيّن لي ❁ مآلَ القُرى في معرض الفالِ[1]

وقد قضى ابن الخطيب في سلا عامين كاملين، من رجب سنة 761هـ إلى رجب سنة 763هـ.

ولمّا وقعت ثورة في غرناطة قتل فيها السلطان إسماعيل، وانتزع العرش متغلّب جديد، هو الرّئيس أبو سعيد، جاز الغنيّ بالله إلى الأندلس، ففرّ السّلطان الجديد، واستردّ الغنيّ بالله ملكه، وذلك في الحادي والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 763هـ[2].

وما كاد محمد الغنيّ بالله يستردّ ملكه، بعد محنة دامت زهاء عامين ونصف، وما كاد يستقرّ من جديد على عرشه، حتّى كتب إلى وزيره المنفيّ ابن الخطيب رسالة رقيقة مؤثّرة، مؤرَّخةّ في الرّابع والعشرين من جمادى الثانية سنة 763هـ، يخبره فيها بنجاحه، ويطلب إليه العودة، لكي يتقلّد منصبه، وهكذا نزل ابن الخطيب عند رغبته، ووصل إلى غرناطة ودخلها في يوم السّبت في العشرين من شعبان سنة 763هـ[3].

---

1) نفاضة الجراب، في علالة الاغتراب لابن الخطيب، 2: 205.
2) لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري لمحمد عبد الله عنان: 99.
3) أزهار الرّياض، للمقرّي، 1: 37 38.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

عاد ابن الخطيب إلى الوزارة من جديد، وفي هذه المرّة كانت ولايته ولاية مطلقة، يستأثر فيها بالنّفوذ وسائر السّلطات، كما أن الغنيّ بالله لم يكتفِ بمدافعة الجيوش النّصرانيّة، وردّها عن أراضيه، بل غزا مدينة أطريرة[1] في شعبان سنة 768هـ؛ وفي أواخر هذا العام زحف إلى مدينة جيّان وحاصرها حتّى استولى عليها، وتوالت الانتصارات، فافتتح مدينة أبّدة، والجزيرة الخضراء وغيرها[2].

وهكذا ظهرت مملكة غرناطة بمظهر من القوّة والبأس، وهي تدين بكثير من الفضل في ذلك لقائدها السّياسيّ المحنّك، ووزيرها القويّ، ابن الخطيب، الّذي كان يسهر على تسيير شؤونها بحنكة وبصيرة.

لقد بدأ لسان الدّين يشعر بأنّ أعداءه أخذوا يكيدون له عند الغنيّ بالله، وفي مقدّمتهم الوزير محمد بن يوسف بن محمد الصّريحي الشّهير بأبي عبد الله بن زمرك[3]، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي المالقي النباهي[4] اللذين اتّهما لسان الدين بتهمٍ مختلفةٍ كالإلحاد والخروج على الدين، اعتماداً على بعض ما جاء في كتبه، وبالأخصّ ما ورد في كتابه "روضة التّعريف بالحبّ الشّريف"، وزعما أنّ هناك طعناً في حقّ النّبيّ، والقول بالحلول، والأخذ بمذهب الفلاسفة الملحدين؛ وشعر لسان الدين أن الغنيّ بالله أخذ يميل إلى قبول وشايات الحسّاد، فاتّصل سرّاً بسلطان المغرب أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، فوعده بأن يؤمّن له الحماية اللاّزمة والرّعاية الكافية، وأخذ منه عهداً بالإقامة في كنفه، عندئذ استأذن سلطانه الغنيّ بالله، بأن يقوم بجولة لتفقد الثّغور، فأذن له، فخرج من غرناطة مع ولده عليّ، فلمّا وصل إلى جبل طارق، تلقّاه قائد الجبل، بناء على أمر سلطان المغرب أبي فارس المريني، ووصل إلى سبتة في جمادى الآخرة من عام[5] 772هـ.

---

1) الواقعة جنوب شرق إشبيليّة.

2) ينظر: لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان: 184.

3) أصله من شرق الأندلس، ونزحت أسرته إلى غرناطة، واستقرّت بربض البيّازين، حي غرناطة الشعبي، وبه ولد أبو عبد الله سنة 833هـ، وهو تلميذ لسان الدين.

– ينظر لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري لمحمد عبد الله عنان: 125.

4) ولد بمالقة سنة 713هـ، ثمّ وفد على غرناطة، وتولى القضاء، ثمّ عُيِّن كاتبا بالدّيوان، وقاضي القضاة في غرناطة، وكان لابن الخطيب فضل في توليته هذا المنصب العالي.

– ينظر لسان الدين بن الخطيب، حياته و تراثه الفكري: 126.

5) التعريف بابن خلدون: 140 و147.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وكان ابن الخطيب قد بعث، وهو يغادر وطنه إلى غير رجعة، رسالة وداع إلى الغنيّ بالله، يُبَرِّئ فيها نفسه، وأرسل منها نسخة إلى ابن خلدون، أوردها هذا الأخير كاملة في: "كتاب العبر"[1].

ثمّ توجّه ابن الخطيب إلى تلمسان فوصلها في التّاسع عشر من رجب سنة 772هـ، واستقبله السّلطان عبد العزيز المريني أحسن استقبال، وأرسل سفيره إلى غرناطة، فأتى بأسرة ابن الخطيب مكرّمة، ولكن الظّروف ما لبثت أن تغيّرت، فجرت لابن الخطيب محاكمة غيابية في غرناطة حضرها الفقهاء وكبار العلماء وكان أبو الحسن النّباهي هو الزّعيم الّذي أفتى بوجوب قتله وحرق كتبه، فأحرقت كتبه في ساحة غرناطة، وكتب الغنيّ بالله إلى سلطان المغرب عبد العزيز المريني يطلب منه تسليم لسان الدّين لإجراء العقوبة عليه وقتله، فلم يلتفت السّلطان لهذا الطّلب.

ولمّا توفّي سلطان المغرب في ربيع الآخر من عام 774هـ، فقد ابن الخطيب حاكماً مخلصاً يحميه من أعدائه، فلجأ إلى الوزير أبي بكر بن الغازي، الّذي تولّى أمور الدّولة وصيّاً على السّلطان الطّفل أبي زيّان محمد السّعيد.

وانتقل ابن الخطيب والوزير ابن غازي من تلمسان إلى فاس، وكرّر الغنيّ بالله طلبه بتسليم بن الخطيب، فأبى الوزير ورفض، عندئذ قام السّلطان الغرناطي الغنيّ بالله باصطناع فتنة في المغرب[2] أطاحت بالسّلطان المريني القاصر "السّعيد" وبوزيره "ابن غازي"، وإسناد الحكم لأبي العبّاس أحمد ابن السّلطان أبي سالم، فدخل مدينة فاس، وجلس على العرش في أوائل محرّم من العام 776هـ، وتولّى الوزارة سليمان بن داود الّذي كان من ألد أعداء ابن الخطيب[3]، عندئذ تحقق لسلطان غرناطة "الغنيّ بالله" ما يريده، فقبض سلطان المغرب الجديد على ابن الخطيب وأودعه السّجن، وأخبر الغنيّ بالله بالأمر، فأرسل الغنيّ بالله وزيره ابن زمرك إلى فاس لتنفيذ المهمّة، فأحضر ابن الخطيب في مجلس شورى، ووجّهت إليه التّهم اعتمادا على بعض ما جاء في كتابه "روضة التّعريف بالحبّ الشّريف"[4].

---

1) كتاب العبر، 7: 949 956.

2) ينظر: لسان الدّين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري، لمحمّد عبد الله عنان: 164 156.

3) ولهذه العداوة قصّة، بنظر: المرجع نفسه: 166.

4) هذا الكتاب الّذي يشير ابن الخطيب في رسالته لابن خلدون إلى ظروف وضعه أنّ الغنيّ بالله هو الّذي طلب منه أن يضع مؤلفا في المحبّة يعارض ما جاء به ابن حجلة في ديوان الصّبابة، ففعل ابن الخطيب وجعل موضوع كتابه في الحبّ الإلهي، ينظر: المرجع نفسه: 150.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وكان ابن الخطيب قد أتمّ كتابه "روضة التّعريف بالحبّ الشّريف" وأعطاه للغنيّ بالله في أوائل سنة 769هـ ولم يقل أحد يومئذ أنّه يحتوي على أيّة أقوال خارجة على الشّريعة[1].

وقد علّق عبد الله عنان على هذا الأمر قائلا:" ولقد قرأنا هذا الكتاب الضّخم لنحاول العثور على شيء من هذه النّصوص والمقالات الضّالة، الّتي يمكن أن تصلح سندا للاتّهام، ولكنّا لم نجد شيئا واضحا يمكن أن تسند إليه هذه الصّفة، وبالعكس، فقد رأينا أنفسنا أمام روضة يانعة حافلة بمزيج رائع من الآراء والنّظريات، الّتي تشعّ بالإيمان والخشوع، وتشهد لصاحبها بسلامة العقيدة، وصدق الطوية، والبعد التّام عن كلّ ما يمكن أن يوسم بالخروج أو الإلحاد؛ إنّ ابن الخطيب يحدّثنا في عدّة فصول ممتعة عن الإسلام ، وعن النّبوّة، وعن سرّ الجمال والكمال وشرح نور الله، وعن أسماء الله الحسنى، وعن عظمة النّبي ورفيع خلاله."[2]

وعلى الرّغم من دفاعه عن نفسه، وظهور براءته من تهمة الزّندقة، فقد امتحن بالعذاب، ثمّ أعيد إلى السّجن، ودسَّ إليه خصمه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا السّجن ليلا وقتلوه خنقا.

وفي اليوم الثاني أخرجت جثّته ودفن في مقبرة باب المحروق، أحد أبواب مدينة فاس، ثم أخرجوه في اليوم الثالث من القبر، وأشعلوا من حوله النار، فاحترق شعره واسودّت بشرته، ثمّ أعيد إلى القبر قبل أن يحترق، وذلك في ربيع الأوّل من العام 776هـ[3]؛ و لا يزال قبره قائما في باب المحروق بفاس في ضريح صغير عليه هذه العبارة: "هذا ضريح العلاّمة لسان الدّين بن الخطيب" [4].

---

1) ينظر: لسان الدّين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري: 155.

2) ينظر: المرجع نفسه: 152.

3) ينظر: خبر مقتل ابن الخطيب في كتاب العبر، 7: 707-710، ونفح الطّيب، 7: 105-107، وأزهار الرّياض، 1: 229-231.

4) ينظر: لسان الدّين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري : 174.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

المبحث الثاني: ثقافته ومؤلفاته.

لسان الدّين بن الخطيب عالم موسعيّ، ونقطة مشعّة في سماء الأندلس الزّاخرة، اتّسعت ثقافته وتنوّعت، فمن التّاريخ إلى الجغرافيا، والأدب، والشّريعة، والتّصوّف، والسّياسة، والطب، والموسيقى، ضمّ ذلك كلّه، بأسلوبه الرّشيق في أكثر من ستّين مؤلّفا[1].

ففي التّاريخ ألّف سبعة كتب تناولت تاريخ المشرق والمغرب والأندلس من عهد الرّسول الكريم- صلّى الله عليه وسلّم حتّى أيّامه، وهي:

1. **الإحاطة في أخبار غرناطة**: وهو من أشهر مؤلّفات لسان الدّين وأضخمها، ويعدّ من أهمّ المصادر الأندلسيّة في التراجم والتاريخ، وعنوان الكتاب يدلّ على الغاية الّتي رمى إليها ابن الخطيب من تأليفه، وهي تقديم صورة شاملة عن كلّ ما يتعلّق بمدينة غرناطة من أوصاف وأخبار.

وترجم ابن الخطيب لثلاث وتسعين وأربعمائة شخصيّة أندلسيّة، ممّن حكموا غرناطة، أو وفدوا إليها من المغرب أو المشرق، من ملوك وأمراء وأعيان وولاة ووزراء وقضاة وفقهاء وكتّاب وشعراء وزهّاد وصوفية.

ولم ينس أن يكتب سيرته الذّاتية في آخر الكتاب، ولكنّها ترجمة موجزة تناولت نسبه ومولده ونشأته، وتقلّده الوزارة لأبي الحجاج يوسف النّصري ثمّ لولده الغني بالله، ونكبته مع الغني بالله وهجرته إلى المغرب، ثمّ عودته مع الغني بالله سنة 763هـ، ثمّ مشيخته ومؤلّفاته، مع إيراده بعض شعره[2].

والكتاب لم يكتب دفعة واحدة، فقد بدأ بجمعه قبل نفيه مع سلطانه الغني بالله سنة 761هـ، واستأنف العمل فيه بعد عودته من المنفى سنة 763هـ، فراجعه وزاد فيه فجعله في ستّة مجلّدات.

والتّرتيب الّذي اعتمد ابن الخطيب هو ذكر الحاضرة غرناطة، ووصف محاسنها، والحديث عن الّذين سكنوها وتولّوها، ملتزما التّرتيب الأبجدي لأصحاب التّراجم، لا التّرتيب التّاريخي، فإذا ذكر الرجل ذكر نسبه وأصالته وحسبه ومولده وبلده ومذهبه ومآثره وشعره وأدبه وتصانيفه ووفاته. وقدّم للكتاب، وجعله قسمين: قسما أوّل في حُلَى المعاهد والأماكن والمنازل

---

(1) لسان الدّين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري، لمحمّد عبد الله عنان: 229.

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، تح/ محمد عبد الله عنان، 4: 634.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

والمساكن، وقسما ثانيا في حُلى الزّائر والقاطن والمتحرّك والسّاكن[1]. بدأ القسم الأوّل بفصل يدور حول اسم مدينة غرناطة فقدّم وصفا جغرافيّا دقيقا لهذه المدينة[2]، ثمّ تناول تاريخها منذ أن نزلها العرب أيّام الفتح حتّى سلاطين بني نصر[3] وذكر قُراها، وقال: إنّها تنوف عن ثلاثمائة قرية[4]، ثمّ أعقبه بفصل ثان ذكر فيه سيَر أهل غرناطة وأخلاقهم وأحوالهم وأنسابهم وجندهم وزيّهم[5]، ثم أنهاه بفصل ثالث حصره في من تداول على الحكم في هذه المدينة[6]، ثمّ بدأ القسم الثاني بذكر من ترجم لهم، وعقد في آخره ترجمة مختصرة لنفسه.

والكتاب، بالإضافة إلى قيمته التّاريخية، يضيء جانبا مهما من حياة الأندلسيّين الاجتماعية، فهو يشير إلى أهمّ ظاهرة اجتماعية كانت منتشرة في هذه الفترة في بلاد المغرب والأندلس معا، ألا وهي مصارعة الثيران، فقد ذكر في ترجمة الغني بالله، أنّه حضر في المغرب في عهد أبي عنان فارس بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، عندما أرسله سلطان غرناطة الغني بالله رسولا على أثر بيعته عام 755هـ مصارعة بين ثور وأسد، انتهت بانتصار الثور وجرح الأسد، وخروج طائفة من الرّجال المسلّحين أخذوا يناوشون الأسد الجريح، إلى أن قتلوه[7].

وفي مكان آخر يصف ابن الخطيب مصارعا غرناطيّا يصارع ثورا وهو يمتطي فرسه المدرّب، فينعته بالفارس المغوار، ويخبرنا أنّه قتل الثّور برمحه، وهذا النّوع الثّاني من المصارعة لا يزال موجودا في إسبانيا حتّى اليوم[8].

وقد لقي كتاب "الإحاطة" استحسان قارئيه، فعدّه المقرّي من الكتب الّتي ذاع صيتها في المشرق والمغرب، وذهب إلى أنّ المشارقة كانوا أشدّ إعجابا به من المغاربة وأكثر لهْجاً بذكره[9].

2. **أعمال الأعلام، في من بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام، وما يجرّ ذلك من شجون الكلام،** هو آخر مؤلّف كتبه ابن الخطيب قبل مصرعه، وقد ألّفه للوزير

---

1) ينظر الإحاطة 1: 10.
2) المصدر نفسه 1: 13-18.
3) المصدر نفسه 1: 18-21.
4) المصدر نفسه 1: 32-35.
5) المصدر نفسه 1: 36-40.
6) المصدر نفسه 1: 40-42.
7) المصدر نفسه 1: 6-7.
8) الإحاطة، مقدمة المحقّق، 1: 6.
9) نفح الطّيب، 9: 324.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

أبي بكر بن غازي، القائم بالدولة والوصيّ على الطّفل محمد السّعيد، الّذي تولّى الحكم في المغرب بعد موت والده السّلطان عبد العزيز المريني سنة 774هـ، وفيه واصل حملته على القاضي أبي الحسن النباهي، ونعته بـ "الجعسوس" [1]، ولم يتح له القدر إكماله، فتركه ناقصاً، وهو يشتمل على ثلاثة أقسام: القسم الأوّل: يتناول تاريخ المشرق ومصر والشّام، والثّاني: يتناول تاريخ الأندلس حتّى أيّام ابن الخطيب، والثّالث يتناول تاريخ المغرب وإفريقية، وقد نشر منه القسمان الثّاني والثّالث فقط.

ويمكن وصفه، بأنه الكتاب الوحيد، من بين مؤلّفات ابن الخطيب الّذي تغلب عليه الصّفة التّاريخية المحضة، فهو تاريخ عامّ للدّول الإسلامية في المشرق والمغرب[2].

3. **رقم الحُلل في نظم الدّول**، وهو عبارة عن أرجوزة من نظم ابن الخطيب نفسه، أهداها إلى سلطان المغرب في أثناء إقامته بمدينة سلا في المدّة الّتي قضاها منفيًّا بالمغرب ما بين 760هـ و763هـ، وتدور حول تاريخ الدّول الإسلامية بالمشرق والأندلس، منذ أيّام الرّسول الكريم حتّى أيّام ابن الخطيب، بدءاً بالخلفاء الرّاشدين، ومروراً بدولة بني أميّة و بني العبّاس وبني الأغلب والفاطميّين وبني أميّة بالأندلس، وانتهاءً ببني نصر بغرناطة وبني حفص بإفريقية وبني مرين بالمغرب. وهكذا سرد ابن الخطيب التّاريخ الإسلاميّ شعراً، وشرح هذه الأراجيز نثراً [3].

4. **طُرفة العصر، في دولة بني نصر**، ويتألّف من ثلاثة أسفار، ويؤرّخ لبني نصر، وهو مفقود.

5. **قطع الفلاة بأخبار الولاة**، عبارة عن رسالة نثرية قصيرة، تمثّل فيها ابن الخطيب بشعرٍ من نظم غيره، والرّسالة لا تزيد عن عشر صفحات، وقد أوردها ابن الخطيب في كتابه "نفاضة الجراب"[4].

6. **اللّمحة البدْريّة، في الدّولة النّصرية**، وهو مختصر في تاريخ بني نصر ملوك غرناطة، بدأ تدوينه عام 763هـ، وانتهى منه عام 765هـ، وهو مطبوع[5].

---

1) أي القزم الدّميم
2) لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان: 247.
3) ينظر رقم الحلل في نظم الدول، لسان الدين بن الخطيب، المطبعة العمومية، تونس، 1316: 5.
4) نفاضة الجراب، 2: 151، 162.
5) ينظر اللمحة البدرية، لسان الدين بن الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ: 2.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

7. **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب،** ضمنه مذكّراته الشّخصية عن فترة من أهمّ فترات حياته، هي الفترة الّتي قضاها في عزلته منفيّا في مدينة سلا المغربيّة مع سلطانه الغنيّ بالله، وهي مدّة عامين من رجب سنة 761هـ إلى رجب سنة 763هـ، ويأتي من حيث الأهمّية بعد كتاب "الإحاطة".

وفي الرّحلات والجغرافية ألّف ثلاثة كتب، وصف فيها أهمّ مدن المغرب والأندلس وهي:

1. **خطرة الطّيْف، ورحلة الشّتاء والصّيف،** وهي رسالة كتبها ابن الخطيب سنة 748هـ، وصف فيها رحلة قام بها السّلطان يوسف أبو الحجاج في شهر محرّم من العام المذكور، لتفقد مقاطعات غرناطة الشّرقية وهي: وادي آش، وبسطة، وبُرشانة، وبَيْرة، والمَريّة.

والرّسالة تضيء ظاهرة اجتماعية مهمّة، وهي أنّ أهالي تلك البلاد الشّرقية، رجالاً ونساءً، كانوا يستقبلون الرّكب السّلطاني بأبواقهم و طبولهم وملابسهم الجميلة البيضاء، وهو الزِّيّ التّقليديّ لأهل الأندلس.

2. **معيار الاختبار، في ذكر أحوال المعاهد والدّيار**[1]، رسالة قدّم فيها ابن الخطيب وصفاً دقيقاً لأربع وثلاثين مدينة وبلدة أندلسية تابعة لسلطنة غرناطة، وأهمّها مالقة ووادي آش وغرناطة ولوشة ورندة، كما قدّم فيها وصفاً لعشرين مدينة مغربيّة أهمّها: سبتة، وطنجة ومراكش وأغمات ومكناسة وفاس.

وقد دوّنها في أثناء المدّة التي قضاها في المنفى مع سلطانه الغنيّ بالله بين عامي 761هـ و 763هـ.

3. **مفاخرات مالقة وسلا،** وهي رسالة مسجعة في المقارنة بين مدينة مالقة الأندلسية التابعة لسلطنة غرناطة آنذاك، وبين مدينة سلا المغربية، وذلك في مختلف النّواحي الجغرافية، والاجتماعية والاقتصادية.

وفي التّراجم ألف أربعة كتب، ترجم فيها لأدباء وشعراء وفقهاء غرناطيين عاصروه، وهي:

1. **الإكليل الزّاهر، في من فضل عند نظم التّاج من الجواهر،** وهو تكملة لكتاب "التّاج المحلّى"، كتبه لسلطانه أبي الحجّاج بن يوسف النّصري، وفيه يتناول

(1) وجاء باسم "معيار الاختبار في ذكر المشاهد والديار" أو "في ذكر المعاهد والآثار"، ينظر "لسان الدين حياته وتراثه الفكري، عبد الله عنان: 261.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

تراجم بعض الأعلام من معاصريه، أمثال شيخه ابن الجيّاب، وابن مقاتل المالقي، ومحمّد بن علي العبدري، وأبي القاسم العزفي السّبتي، وأبي عبد الله بن بيبش الغرناطي، ومحمّد بن هانئ اللّخمي السّبتي، وابن الجدّ الفهري، وغيرهم.

وقد ورد العنوان في "ريحانة الكتاب" كالآتي: «الإكليل الزّاهر، في من فضل عن نظم التّاج من الجواهر»[1].

2. **التّاج المُحلَّى، في مساجلة القدح المعلّى**، وهو يحتوي على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ إنشائها على أيدي بني نصر، وتراجم أعيانها في القرن الثّامن الهجري، ويترجم ابن الخطيب لنفسه ولوالده؛ وكتاب "القدح المعلّى" الّذي يقرن به ابن الخطيب عنوان كتابه، هو من تأليف ابن سعيد الأندلسي المتوفّى سنة 673هـ، وهو يضم طائفة من تراجم الكتّاب والأدباء والشّعراء الأندلسيين الّذين توفّي معظمهم في النّصف الأوّل من القرن السّابع الهجري.

3. **عائد الصّلة**، وقد وصل ابن الخطيب به كتاب "صلة الصّلة" للأستاذ أبي جعفر بن الزّبير المتوفّى 708هـ، جمع فيه طائفة من تراجم الأعلام الّذين لم يرد ذكرهم في كتاب ابن الزّبير.

4. **الكتيبة الكامنة، فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة**، وفيه يترجم ابن الخطيب لطائفة من الخطباء والشّعراء، والمقرئين والفقهاء والكتّاب المعاصرين له، ويورد مختارات من شعرهم ونثرهم، وجاء في "الإحاطة" تحت عنوان: "الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثّامنة"[2].

ويرجح أن يكون قد ألفه في سنة 774هـ، يدلّ على ذلك بعض التّراجم الّتي وضعها لخصومه مثل ترجمة النّباهي.

وألّف في الأدب سبعة عشر كتابا، بعضها في الشّعر، قد يكون ديوانا من نظمه أو مختارات شعرية لمشارقة وأندلسيين، وبعضها نثر يدور حول رسائل أدبيّة، والبعض الآخر موشّحات أصحابها ينتمون إلى عصور المرابطين والموحّدين وبني نصر وهي:

---

[1] ريحانة الكتاب، 2: 411.

[2] الإحاطة، 4: 390.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

1. **أبيات الأبيات**، اختاره من مطالع ما له من الشّعر، وذكره ضمن مؤلّفاته[1]، كما ذكره المقرّي في كتابيْه "النّفح" و"أزهار الرّياض" دون أن يزيد شيئا عمّا جاء به ابن الخطيب[2].

2. **تافةٌ من جمّ، ونقطة من يمّ**، رسائل اقتضبها ابن الخطيب من نثر أستاذه الوزير أبي الحسن علي بن محمد الأنصاري، المعروف بابن الجيّاب، وذهب المقرّي إلى أنّ ابن الخطيب جمع في هذا الكتاب نثر ابن الجيّاب وشعره[3].

3. **تخليص الذّهب، في اختيار عيون الأدب**، وهو مفقود، ورد اسمه في "أزهار الرّياض"[4].

4. **جيش التّوشيح**، فيه خمس وستّون ومائة موشّحة لستّة عشر وشّاحا عاشوا في القرن السّادس الهجري، وهذا السّفر الأوّل مطبوع بتونس سنة 1967م. أمّا السّفر الثّاني فيدور حول وشّاحي القرن السّابع الهجري، والنصف الأوّل من القرن الثّامن الهجري، وهو مفقود.

ويذكر المقرّي أنّ معاصره ومواطنه، الكاتب الوزير المغربي عبد العزيز بن محمد القشتالي، ذيّل على كتاب ابن الخطيب هذا، بكتاب سمّاه " مدد الجيش" ضمّنه كثيرا من موشّحات المغاربة في عصره، أي أوائل القرن الحادي عشر الهجري[5].

5. **خلع الرّسن، في أمر القاضي أبي الحسن**، وهي رسالة مفقودة، وضعها ابن الخطيب للردّ على خصمه القاضي أبي الحسن النّباهي، قاضي الجماعة بغرناطة، وقد وضعها أثناء إقامته بتلمسان، ورفعها للسّلطان عبد العزيز المريني، وفيها يهجو النّباهي ويحمل عليه بعنف، وورد في كتابه "أعمال الأعلام" هكذا: "خلع الرّسن، في التّعريف بأحوال أبي الحسن"[6].

6. **الدّرر الفاخرة، واللّجج الزّاخرة**، وهي رسالة مفقودة، جمع فيها ابن الخطيب ديوان شعر أستاذه وصديقه أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن صفوان المالقي[7]، أيّام

---

(1) المصدر السابق، 4: 389.
(2) نفح الطّيب، 9: 329، وأزهار الرّياض، 1: 190.
(3) نفح الطّيب، 9: 323.
(4) أزهار الرّياض، 1: 190.
(5) نفح الطّيب، 4: 638.
(6) أعمال الأعلام، 2: 80.
(7) المتوفى سنة 763هـ.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مقامه بمالقة، سنة 744هـ، وذلك حسب ما ذكره في ترجمة ابن صفوان في "الإحاطة"[1].

7.**ريحانة الكتّاب، ونجعة المنتاب**، فيه طائفة كبيرة من الرّسائل السّلطانية والسّياسيّة، يتعلّق بعضها بوصف الغزوات والوقائع الحربيّة الّتي جرت في إشبيليّة وجيّان والجزيرة الخضراء وجبل طارق، وبعضها في طلب الإنجاد والعون من سلاطين المغرب، وهو مطبوع في مجلّدين[2].

8.**السِّحر والشّعر**، عبارة عن مختارات شعريّة لمشارقة وأندلسيّين تشتمل على الوصف والمدح والحكم والزّهد.

9.**الصَّيِّب والجهام، والماضي والكهام**، وهو ديوان ابن الخطيب، اختاره بنفسه أو اختار له بعض تلاميذه، ما يتضمّنه من شعره، ويقع في سِفْرين.[3]

10.**طلُّ الغمامِ، المُقْتَضبُ من الصَّيِّب والجهام**، ولعلّه مختصر ديوان شعر ابن الخطيب، الّذي سبق ذكره، وقد انفرد ابن القاضي بذكره[4].

11.**فتات الخِوان، ولقط الصّوان**، مفقود، وقد ذكره ابن الخطيب في "الإحاطة" والمقرّي في "نفخ الطّيب"[5].

12.**كناسة الدّكان، بعد انتقال السّكان**، يضمّ مجموعة من الرّسائل السّلطانية الّتي كتبها كلّ من أبي الحجّاج يوسف وولده الغنيّ بالله إلى سلطان المغرب أبي عنان فارس، وقد جمعها ابن الخطيب عند إقامته بمدينة سلا المغربية، وهو مطبوع بالقاهرة 1966م.

13.**المباخر الطّيبيّة، في المفاخر الخطيبيّة**، وهو مفقود، وقد ألّفه لحاميه السّلطان عبد العزيز المريني، يدور موضوعه حول الرّدّ على خصومه من أهل الأندلس الّذين انتقصوا من منزلة بني الخطيب وحسبه، ويذكر فيه نباهة سلفه، وما لهم من المجد[6].

---

1) الإحاطة، 1: 235 و236.
2) حققه محمد عبد الله عنان ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.
3) الديوان محقق في المغرب الأقصى بعناية محمد مفتاح ، دار الثقافة ، المغرب ، 2007م.
4) جذوة الاقتباس: 187.
5) الإحاطة، 4: 389، و نفح الطّيب، 9: 323.
6) نفح الطّيب، 4: 653 و 654 و 655.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

14.**مُثلى الطّريقة، في ذمِّ الوثيقة**، عبارة عن رسالة صغيرة في التّوثيق تتضمّن مناقشات حدثت بين ابن الخطيب، وبين بعض شيوخ أهل الطّريقة، نظماً ونثراً، ويشير ابن الخطيب إليها، وإلى سبب وضعها، في "الإحاطة" عند ترجمته ابن القبّاب[1].

15.**مساجلة البيان**، هذا الكتاب ذكره التّطواني في كتابه "ابن الخطيب من خلال كتبه"[2]ولم يرد ذكره في أيّ من المصادر الّتي ترجمت لابن الخطيب وربّما يدور موضوعه حول علم البيان.

16.**النّفاية بعد الكفاية**، مفقود، ورد اسمه في كتاب "الإحاطة"[3]، وجاء في النّفح بعنوان" النّقاية"بالقاف[4].

17.لابن الخطيب **كتاب في غرض الهجاء**، غير مطبوع، يوجد منه قسم في الخزانة العامّة بالرّباط تحت رقم 1233[5].

وله في الشّريعة والتّصوف والحثّ على جهاد النّفس اثنا عشر مؤلّفاً: بعضها شعر يدور حول الرّدّ على أهل الزّندقة، وبعضها الآخر نثر يبحث في أصول الدّين أو في التّصوف والمحبّة الإلهية، وهي:

1. **استنزال اللُّطف الموجود، في سرّ الوجود**، عبارة عن رسالة صغيرة في التّصوف، جاء بهذا الاسم في "الإحاطة" و"نفح الطّيب" و"أزهار الرّياض"[6] أمّا في "ريحانة الكتّاب" فجاء باسم استنزال اللّطف الموجود، في أسرار الوجود"[7].

2. **الحُلل المرقومة، في اللُّمع المنظومة**، عبارة عن أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه[8].

---

1) الإحاطة، 1: 194.
2) ابن الخطيب من خلال كتبه لمحمد بن أبي بكر التّطواني: 63.
3) الإحاطة، 4: 390.
4) نفح الطّيب، 9: 320.
5) ابن الخطيب من خلال كتبه، التّطواني: 45.
6) الإحاطة، 4: 388، و نفح الطّيب، 9: 323، و أزهار الرياض، 1: 190.
7) ريحانة الكتّاب، 1: 52.
8) الإحاطة،4: 388 ونفاضة الجراب، 2: 187، ونفح الطّيب، 9: 321، وأزهار الرّياض، 1: 189.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

3. **رسالة في الشّعر**، مفقودة، ذكرها ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة"[1] عندما ترجم للغنيّ بالله، ويدور موضوعها حول الرّدّ على أهل الزّندقة.

4. **حَمْلُ الجُمهور، على السَّنن المشهور**، عبارة عن رسالة مفقودة، ذكرها ابن الخطيب في "الإحاطة"[2]، ويدور موضوعها حول السَّنن المشهور، كإخماد البدع، البدع، والاشتداد على أهل الزّندقة.

5. **الرّدّ على أهل الإباحة**، هو كتاب مفقود، جاء اسمه في "الإحاطة" وفي "نفح الطّيب"[3].

6. **رَجَزُ الأصول**، أرجوزة مفقودة في أصول الفقه، وقد ذكر ابن الخطيب بأنّ له خمس أراجيز من نظمه في أصول الفقه[4].

7. **الرَّميمة**، ورد ذكرها في كتاب "الإحاطة" فقط[5].

8. **روضة التّعريف بالحبّ الشّريف**، هو كتاب في التّصوف، يدور موضوعه حول الحبّ الإلهيّ، عارض به "ديوان الصّبابة" لأبي العبّاس بن أبي حجلة[6]، ويذكر ابن الخطيب أنّه قضى في تأليفه مدّة لا تتجاوز الشّهرين؛ هذا الكتاب الّذي كان سبباً في وفاته.

9. **الزّبدة الممخوضة**، جاء ذكره في "الإحاطة"[7].

10. **سدُّ الذّريعة، في فصل الشّريعة**، كتاب مفقود، جاء ذكره في "الإحاطة" و"نفح الطّيب"[8].

11. **الغيرة على أهل الحيرة**، رسالة مفقودة، جاء ذكرها في "الإحاطة"[9] يدور موضوعها حول الغيرة على المتدينين عموما، والصوفية خصوصا .

---

[1] الإحاطة ، 2: 35.
[2] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
[3] المصدر نفسه، 4: 388 ونفح الطّيب، 9: 323.
[4] ريحانة الكتّاب، 2: 223.
[5] الإحاطة، 4: 388.
[6] لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان: 262.
[7] الإحاطة، 4: 388.
[8] المصدر نفسه، 4: 388، ونفح الطّيب، 9: 323.
[9] الإحاطة ، 2: 35.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

12. كتاب المحبّة، مفقود، وقد ورد ذكره في كتاب "الإحاطة"[1] وموضوعه المحبّة الإلهيّة.

وله في السّياسة ثمانية مؤلّفات، بعضها شعر في فنّ السّياسة وعواقب سوء التّدبير، وبعضها الآخر نثر يبحث في شؤون الوزارة والجند والعمّال، وهي:

1. الإشارة إلى أدب الوزارة، هو كتاب في السّياسة، جاء ذكره في "ريحانة الكتّاب"[2] أمّا في "الإحاطة"[3] فجاء باسم "الإشارة" فقط، وذكره المقرّي في "نفح "نفح الطّيب"[4] ونشره الأستاذ عبد القادر زمامة بدمشق سنة 1972م.

2. بستان الدّول، كتاب مفقود في السّياسة، والقضاء، وأهل المهن، يشتمل على عشر شجرات: شجرة السّلطان، ثمّ شجرة الوزارة، ثمّ شجرة الكتابة، ثمّ شجرة القضاء، ثمّ شجرة الشّرطة، ثمّ شجرة العمل، ثمّ شجرة الجهاد، ثمّ شجرة ما يضطرّ الملك إليه من الأطبّاء والمنجّمين والشّعراء، ثمّ شجرة الرّعايا، ولكنّه لم يورد منها إلاّ تسعاً[5].

3. تخصيص الرّياسة، بتلخيص السّياسة، كتاب مفقود، عبارة عن أرجوزة في فنّ السّياسة، جاء في "الإحاطة" باسم "رجز السّياسة"[6].

4. رسالة السّياسة، وهي رسالة بطلها الخليفة هارون الرّشيد، وتدور حول الوزير والجند والعمّال والخدم، وأوردها ابن الخطيب في آخر كتابه "الإحاطة"[7]، "الإحاطة"[7]، وكذلك في "الرّيحانة" .

5. رسالة في السّياسة، هي رسالة قصيرة مكتوبة باللّغة القشتالية، وموجّهة إلى ملك قشتالة "بدرو" Pedro [8].

6. رسالة في أحوال خدمة الدّولة ومصائرهم، وتنبيههم على النّظر في عواقب الرّياسة بعيوب بصائرهم، وجّهها ابن الخطيب إلى الخطيب بن مرزوق[1].

---

1) المصدر السابق، 4: 388.
2) ريحانة الكتّاب، 2: 335.
3) الإحاطة، 4: 390.
4) نفح الطّيب، 9: 321.
5) ينظر، لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري: 268.
6) الإحاطة، 4: 388.
7) الإحاطة، 4: 534، وريحانة الكتّاب، 2: 316ـ324، ونفح الطّيب، 9: 147ـ159.
8) ينظر، نفاضة الجراب، 2: 188.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

7. **كتاب الوزارة**، يبحث في شؤون الوزارة، جاء ذكره في "الإحاطة"[2] وفي "النّفح" و"الأزهار"[3].

8. **مقامة السّياسة**، أيضا هذه المقامة جاء ذكرها في " الإحاطة"[4] وفي "النّفح"[5] دون تفصيل.

وله في الطّب والأغذية اثنا عشر مؤلّفا، بعضها شعر يتضمّن ذكر جميع الأمراض الكلّية، ويبحث في فنّ العلاج، أو في علاج السّموم، وبعضها نثر يتناول مراحل حَمْل الجنين، أو يتحدّث عن علاج مرض الطّاعون، أو عن منافع الأغذية ومضارّها، وهي:

1. **أرجوزة في فنّ العلاج من صنعة الطّب**، ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلّفاته الّتي وضعها أثناء إقامته بسلا، وذكر أنّها تقع في نحو ألف وستّمائة بيت[6]، وتضمّنت ذكر جميع الأمراض الكلّية والجزئية، وذكر أسبابه وعلاماتها، وتطبيق العلاج بحسب أحوالها، جاء اسمها في "الإحاطة"[7] هكذا "رجز الطّب"، والاسم نفسه أورده المقرّي في "أزهار الرّياض"[8].

2. **الأرجوزة المعلومة**، كتاب في علاج السّموم، وقد صرّح ابن الخطيب بأنّه كتبها ليعارض بها "الأرجوزة المجهولة" الّتي وضعها ابن سينا[9].

3. **البيطرة**، كتاب مفقود، جاء ذكره في "الإحاطة"[10] و"نفح الطّيب"[11].

4. **البيزرة**، كتاب مفقود كذلك جاء ذكره في "الإحاطة"[12] و"نفح الطّيب"[13]، ويبحث في أحوال الجوارح من الطّيور.

---

(1) المصدر السابق، 2: 188.
(2) الإحاطة، 4: 388.
(3) نفح الطّيب، 9: 323، وأزهار الرّياض، 1: 190.
(4) الإحاطة، 4: 388.
(5) نفح الطّيب، 9: 323.
(6) لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، لمحمّد عبد الله عنان: 278.
(7) الإحاطة، 4: 388.
(8) أزهار الرّياض، 1: 189.
(9) الإحاطة، 4: 390.
(10) المصدر نفسه، 4: 388.
(11) نفح الطّيب، 9: 323.
(12) الإحاطة، 4: 388.
(13) نفح الطّيب، 9: 323.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

5. **الرّجز في عمل التِّرياق**، كتاب مفقود، ذكره ابن الخطيب في "الإحاطة"، ويدور حول التّرياق الفاروقي وهو دواء مركّب لدفع السّموم[1].

6. **رسالة تكوين الجنين**، رسالة مفقودة، هكذا ورد اسمها في "الإحاطة"[2] أمّا في في "النّفح" و"الأزهار"[3] فجاء اسمها: "رسالة تكوّن الجنين"، وكما يبدو من عنوانها أنّها تتحدّث عن مراحل الحمل.

7. **رسالة الطّاعون**، جاء ذكرها في "الإحاطة"[4] و"الأزهار"[5]، وقد تكون هي نفسها: "مقنعة السّائل، عن المرض الهائل"، وهي الرّسالة الصّحّية الّتي تتحدّث عن مرض الطّاعون الّذي داهم الأندلس عام 749هـ، وقد نُشرت بألمانيا مع ترجمة لها بالألمانية في مجلّة أكاديمية العلوم سنة: 1863م[6].

8. **عمل من طبّ لمن حبّ**، وهو أهمّ مؤلّفات ابن الخطيب الطّبية، وهو مؤلّف ضخم، يتناول فيه مختلف الأمراض، ويذكر أسباب كلّ مرض وأعراضه وعلاجه، ونظام الغذاء الّذي يناسبه، ويتحدّث فيه عن مختلف أعضاء الجسم، وطرق العناية بها، وقد كتب هذا الكتاب سنة 761هـ[7].

9. **المسائل الطّبية**، مفقود، جاء ذكره في "الإحاطة"[8] وهو عبارة عن رسالة طبّية وصحّية.

10. **المعتمدة في الأغذية المفردة**، هكذا جاء اسمه في "الإحاطة"[9] و"نفح الطّيب"[10]، وهو عبارة عن أرجوزة من نظم ابن الخطيب، يتحدّث فيها عن منافع الأغذية المفردة ومضارّها، وتقع في نحو ألف و مائتي بيت[11].

11. **الوصول، لحفظ الصّحة في الفصول**، جاء ذكره في "الإحاطة"[1]، وهو يبحث في الحمية، وقد فرغ ابن الخطيب من تأليفه عام 771هـ[2].

---

(1) الإحاطة، 4: 388.
(2) المصدر نفسه : الصفحة نفسها.
(3) نفح الطّيب، 9: 323، وأزهار الرّياض، 1: 189.
(4) الإحاطة، 4: 388.
(5) أزهار الرّياض، 1: 189.
(6) لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، لمحمّد عبد الله عنان: 280.
(7) المرجع نفسه: 275.
(8) الإحاطة، 4: 388.
(9) المصدر نفسه، 4: 390.
(10) نفح الطيب، 9: 321.
(11) لسان الدين، حياته وتراثه الفكري: 278.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

12. **اليوسفي في صناعة الطّب**، كتاب مفقود، ألّفه ابن الخطيب لسلطانه أبي الحجّاج يوسف ونسبه إليه، وجاء ذكره في "الإحاطة"[3]، وفي "نفح الطّيب"[4].

وكان له باع في الموسيقى، فألّف فيها كتبا مفيدة، وهو ما ذكره في كتابه "الإحاطة"[5] وأشار إلى ذلك المقرّي في كتابيْه "النّفح" و"الأزهار"[6].

وله مؤلّفات مفقودة لا نعلم عنها شيئا منها:

1. **تقرير الشَّبه وتحرير الشُّبه**، جاء ذكره في "النّفح"[7]و" الأزهار"[8].

2. **قطع السّلوك**، ورد في آخر كتابه "الإحاطة"[9] دون ذكر أيّ شيء عنه.

وممّا تقدّم يمكن القول: إنّ لسان الدّين بن الخطيب على كثرة مشاغله، وتشعّب اهتماماته السّياسية والاجتماعية، كاتب غزير الإنتاج، ألّف في الأدب، والتّاريخ، والجغرافيا، والسّياسة، والطّب، وأصول الدّين، والتّصوّف، والشّريعة، والموسيقى، والتّراجم؛ بعض مؤلفاته مطبوع، وبعضها مخطوط، وبعضها الآخر مفقود، وإلى جانب براعته في النّثر، نجده أيضا بارعا في الشّعر نابغة فيه، قصيدة وموشحات وأزجالا، أورد المقري بعضا منها، وقد قال فيها: "و أما موشحاته وأزجاله فكثيرة، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن"[10] فكان إماما من أئمّة التّوشيح الأندلسي، وأهم موشّحاته تلك التّي مطلعها:

جَادَكَ الغَيْثُ إذَا الغَيْثُ هَمَى ۞ يَا زَمَانَ الوَصْلِ بالأندلس

لَم يكُن وَصْلُكِ إلاَّ حُلُمَـا ۞ في الكَرَى أو خِلسَةَ المُخْتَلس

---

1) الإحاطة، 4: 388.
2) لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، لمحمّد عبد الله عنان: 279.
3) الإحاطة، 4: 390.
4) نفح الطّيب، 9: 321.
5) الإحاطة، 4: 390.
6) نفح الطيب، 9: 321، وأزهار الرّياض، 1: 190.
7) المصدر نفسه، 9: 323.
8) أزهار الرّياض، 1: 190.
9) الإحاطة، 4: 390.
10) نفح الطيب، المقري، تح / إحسان عباس، 7: 5، ينظر أزجاله في نفاضة الجراب، ق3، و" ابن الخطيب إمام الزجل " لمحمد عبد الله عنان مقالة نشرت في مجلة العربي عدد 303، سنة 1967م: 47 49، و"ابن الخطيب الزجال" للأستاذ الرغيني بن ناصر، مقالة في مجلة دعوة الحق عدد 10، سنة 1972م .

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

إذْ يقُودُ الدّهر أشْتَات المُنَى ✵ يَنقلُ الخَطْو على ما يَرْسُمُ
زُمَراً بين فُرادَى وثُنَا ✵ مثلما يدْعو الوفودَ المَوْسِمُ
والحَيا قد جلّل الروضَ سنا ✵ فثُغور الزهر منه تبسُمُ[1]

وقد وصفه المستشرق سيمونيت "بأمير الأدب الغرناطي"[2]، وذكره المستشرق جسبار ريميرو قائلا: "إن ابن الخطيب وزير مملكة غرناطة الأشهر، هو شاعر وكاتب ...وقد استحق من العالم الإسلامي أن يلقب بلسان الدين."[3]

إنّ لسان الدّين بن الخطيب شاعر، وشّاح، وكاتب مترسّل، وهو ـبصدق ممثّل الحركة الأدبية في القرن الثامن الهجري.

[1] نفح الطّيب، 9: 237ـ 240.
[2] لسان الدين حياته وتراثه الفكري: 214.
[3] المرجع نفسه: 215.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الفصل الثاني

رسائل ابن الخطيب

المبحث الاول: الرسائل السلطانية

المبحث الثاني: الرسائل الإخوانية

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الرّسالة تعريفها وأنواعها:

تعريف الرسالة:

المعنى اللغوي:

« راسلهُ مراسلة، فهو مراسل ورسيل، والترسّل في القراءة والترسيل واحد قال: وهو التحقيق بلا عجلة، وفي موضع ثان قال: الترسل من الرسل في الأمور والمنطق كالتمهّل والتثبت، وجمع الرسالة الرسائل »[1]

وجاء في مختار الصحاح في مادة رسل: « راسله مراسلة فهو مراسل ورسيل، وأرسله في رسالة فهو مرسّل (بفتح السين) ...»[2]

وهو أيضا –أي الترسل : « من ترسل ترسلا، وهو كلام يراسل به من بعُد أو غاب... »[3]

أما الزمخشري في " أساس البلاغة " فقد ذكر في باب "رسل " مايلي: « راسله في كذا، وبينهما مكتبات ومراسلات، وتراسلوا، وأرسلته برسالة وبرسول...»[4]

إذا فتعريفها لغة: « هي كل ما يرسل أو هي الكلمة شفوية أو مكتوبة يبلغها الرسول أو يحملها إلى من ترسل إليه، وهذه الكلمة تختلف طولا وقصرا على حسب موضوعها »[5]

المعنى الاصطلاحي:

نجد أن الترسل يأخذ معنى كتابة الإنشاء وفي ذلك يقول القلقشندي: « فأمّا كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات والمسامحات، والإطلاقات، ومناشير

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، باب الراء.
[2] مختار الصحاح، الرازي، مكتبة مشكاة الإسلامية، دت، دط: 154.
[3] النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، عمر عروة، دار القصبة للنشر، دت، دط: 32.
[4] أساس البلاغة، الزمخشري، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1998 م: 353.
[5] في النقد الأدبي، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1972 م: 221.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الإقطاعات، والهدن، والأمانات، والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم وغيرها »[1]

إذا الرسالة فن من فنون النثر القولية، عرفها العرب منذ القدم، فهي تواصل مع الآخر وتعبير عن الذات الكاتبة، ووسيلة اتصال طبيعية بين صديقين غائبين.

والرّسالة من حيث غايتها قسمان: قسم فكريّ لا يهتمّ كثيراً بالبيان، وقسم بيانيّ يتغيّا إظهار البراعة الأسلوبية[2].

أنواع الرّسائل:

1. **الرّسائل الدّيوانيّة: أو السّلطانية،** هي الّتي كانت تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك، وقد كان لكلّ خليفة أو ملك كاتبه الّذي يتولّى الكتابة عنه في كلّ مهام الدّولة وشؤونها.

2. **الرّسائل الإخوانية**: هي تلك الّتي يتبادلها الإخوان والأصدقاء؛ أو يرسلها الكاتب إلى من يريد أن يلتمس منه أمراً من الأمور، وهي تحمل مشاعر كتّابها وتنقل عواطفهم؛ والرّسائل الإخوانيّة ميدان فسيح للإبداع، يتبارى فيه الكتّاب والأدباء.

[1] صبح الأعشى، القلقشندي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج1: 54.
[2] تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس: 231.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

المبحث الأوّل: رسائل ابن الخطيب الدّيوانيّة.

تعتبر رسائل ابن الخطيب الدّيوانية أو السّلطانية من نماذج النّثر الدّبلوماسي في الأندلس، ولقد ترك عدداً كبيراً، من الرّسائل السّياسيّة والدّبلوماسيّة، الّتي كان يكتبها على لسان سلطانه إلى سلاطين المغرب، أو سلاطين مصر.

1. الرسائل الموجهة إلى المغرب :

فهناك رسائل وجّهها ابن الخطيب إلى ملوك المغرب، من إنشائه على لسان سلطانه، يتحدّث فيها عن حوادث الأندلس، وغزوات سلطانه.

ومن ذلك رسالة بعث بها على لسان سلطانه إلى سلطان المغرب، أبي عنان يقول فيها:

« من أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، إلى محل أخينا الّذي نُثْنِي على مَجادته أكرم الثّناء، ونجدّدُ له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء، ونُتحِفُه من سعادة الإسلام وأهله بالأخبار السارّة والأنباء، السّلطان الكذا ابن السّلطان الكذا، أبقاه الله تعالى رفيع المقدار، كريم المآثر والآثار، وعرّفه من عَوارف فضله كلّ مشرق الأنوار، كفيل بالحسنى وعُقبة الدّار.

سلام كريم، يخص جلالكم الأرفع، ورحمة الله و بركاته.

أمّا بعد حمد الله على عميم آلائه، وجزيل نعمائه، مُيسِّر الصّعب بعد إبائه، والكفيل بتقريب الفرج وإدنائه، له الحمد والشّكر ملء أرضه وسمائه، والصّلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه، الهادي إلى سبيل الرُشد وسوائه، مُطْلع نور الحقّ يجلو ظُلم الشك بضيائه، والرّضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخلفائه، السّائرين في الدّنيا والآخرة تحت لوائه، الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلائه، والدّعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه، فإنّا كتبناه إليكم كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه، وعرفكم عوارف السّعادة المعادة في نهاية كلّ أمر وابتدائه، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى! ولا زائد بفضل الله سبحانه ثمّ ببركة سيّدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الّذي أوضح برهانه، وعظم أمره ورفع شأنه، ثمّ بما عندنا من الود الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه، إلاّ الخير الهامي السّحاب، واليسر المبين

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الأسباب، واليمن المفتح الأبواب، والسّعد الجديد الأثواب، ومقامكم معتمد بترفيع الجناب، متعهّد بالودّ الخالص والاعتقاد اللّباب، معلوم له، فضل الدّين وأصالة الأحساب، وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم مديد الأطناب، ثاقب الشّهاب، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النّقاب، فإنّه قد كان بلغكم ما آلت الحال إليه بطاغية قشتالة الّذي كَلِبَ على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار، وما سامها من الأوصاب والأضرار، وأنّه جرى في ميدان الإملاء والاغترار، ومُحِّص المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار، وأنّه نكث العهد الّذي عقده، وحلّ الميثاق الّذي أكّده، وحمله الطّمع الفاضح على أن أجْلبَ على بلاد المسلمين بخيله ورَجْله، ودَهَمَها بتيّار سَيْله وقِطَع ليله، وأمل أن يستولي على جبل الفتح الّذي منه بدأ فتحها، وطلع للملّة المحمّدية صُبْحُها، فضيقه حصاراً، واتخذه داراً، وعندما عظم الإشفاق، وأظلمت الآفاق، ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصّنعُ العجيب، ونزل الفرجُ القريب، وقَبِل الدّعاءَ السّميعُ المجيب، وطرق الطّاغية، جندٌ من جنود الله تعالى أخذه أخذةً رابية، ولم يبق له من باقية، فهلك على الجبل حتف أنفه، وغالته غوائلُ حتْفِه، فتفرّقت جموعه وأحزابه، وانقطعت أسبابه، وتعجّل لنارِ الله تعالى مآبه، وأصبحت البلاد مستبشرة، ورحمة الله منتشرة، ورأينا أن هذه البشارة الّتي يأخذ منها كلّ معلّم بالنّصيب الموفور، ويشارك فيما جلبته من السّرور، أنتم أولى مَنْ تُتحِفُه بطيب ريّاها. ونطلع عليه جميل مُحيّاها، لما تقرّر عندنا من دينكم المتين، وفضلكم المبين، وعملكم في المساهمة على شاكلة صالحي السّلاطين، فما ذلك إلاّ فضل نيّتكم للمسلمين في هذه البلاد، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد، وقد ورد علينا رسولكم القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح، أعزّه الله تعالى! مقرِّرا ما لديكم من الود الرّاسخ القواعد، والخلوص الصّافي في الموارد، الواضح الشّواهد، وأثنى على مكارمكم الأصيلة، وألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة، فقابلنا ذلك بالشّكر الّذي يتّصل سببه، ويتّضح مذهبه، وسألنا الله أن يجعله ودّا في ذاته، ووسيلة إلى مرضاته، وتعرفنا ما كان من تفضّلكم بالطّريدة المفتوحة المؤخر، وما صَدر عن الرّئيس المعروف بالنّاظر من خدّام دار الصّنعة بالمريّة من قبح محاولته، وسوء معاملته، فأمرنا بقطع جرايته وثِقافهِ بمطمورة القصة جزاء لجنايته، ولولا أنّنا توقّعنا أن يكون عظيم عقابه ممّا لا يقع من مقامكم بوفقه، لمشهور عفافه ورفقه، لجعلناه نكالا لأمثاله، وعبرة لأشكاله، وقد وجهنا جفنا سفرياً لإيساق الخيل الّتي ذكرتم، وإيصال ما إليه من ذلك أشرتم، ويكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم، وفضل ولائكم، هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به، عملاً على شاكلة الودّ الجميل، والولاء الكريم الجملة والتّفصيل، فعرفونا بما

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

يتزيد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة، ومكارمكم الحافلة، والله تعالى يصلُ سعدكم، ويحرس مجدكم، والسّلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

فابن الخطيب يخبر أبا عنان عن حال الأندلس، وما آلت إليه بسبب الطّاغية ملك قشتاتة ألفونسو الحادي عشر، حتّى صار الجبل أي (جبل طارق) على وشك السّقوط في أيدي النّصارى، لولا فرج الله الّذي نزل، ونعمته الّتي حلّت بوفاة ملك قشتالة وارتحال الجيش النّصراني، فلسان الدّين بن الخطيب يبشّر أبا عنان بهذا الحادث السّعيد، وهو انسحاب الجيش القشتالي بعد وفاة الطّاغية.

لقد جاءت الرّسالة بأسلوب رصين، ولفظ جزل مختار، فللسان الدّين براعة خاصّة في تخيّر الألفاظ، وإبراز المعاني.

ومن رسائله تلك الّتي بعث بها إلى أحد أبناء أبي الحسن المريني، على لسان سلطانه، يقول فيها:

«المقام الّذي يُصرخ ويُنجد، ويُتهم في الفضل ويُنجد، ويُسعف ويسعد، ويبرق في سبيل الله ويرعد، فيأخذ الكفر من عزماته المقيمُ المُقعد، حتّى ينجز من نصر الله تعالى المَوْعد، مقامُ محل أخينا الّذي حسنُ الظّنّ بمجده جميل، وحدُّ الكفر بسَعده كليل، وللإسلام فيه رجاء وتأميل، ليس للقلوب عنه مَميل، السّلطان الكذا ابن السّلطان الكذا، أبقاه الله تعالى وعزمه الماضي لصَوله الكفر قامعا، وتدبير النّاجح لشَمل الإسلام جامعاً، وملكه الموفّق لنداء الله مطيعاً سامعاً، معظم مقداره، وملتزم إجلاله وإكباره، المعتدُّ في الله بكرم شيمته وطيب نِجَاره، المستظهر على عدوّ بإسراعه إلى تدمير الكافر وبداره.

سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد حمد الله مجيب دعوة السّائل، ومتقبّل الوسائل، ومُتيح النِّعم الجلائل، مُربح من عامله في هذا الوجود الزّائف الزّائل، والأيّام القلائل، بالمتاع الدّائم الطّائل، والنّعيم غير الحائل، ومقيم أوَدِ الإسلام المائل، بأولي المكارم من أوليائه والفضائل، والصّلاة والسّلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله المنقذ من الغوائل، المُنجي من الرّوع الهائل، الصّادع بدعوة الحقّ الصّائل، بين العشائر والفصائل، الّذي ختم به وبرسالته ديوان الرّسل والرّسائل، وجعله في الأواخر شرف الأوائل، فحبّه كنز العائل، والصّلاة عليه زكاة القائل، والرّضا عن آله وصحبه وعترته وحزبه تيجان الأحياء والقبائل، المتميّزين بكرم السّجايا وطيب الشّمائل، والدّعاء لمقام أخوّتكم في البُكر والأصائل، بالسّعد الصّادق المخايل، والصّنع الّذي تتبرّج مواهبه، تبرّج العقائل،

[1] نفح الطيب، 5: 331، الرّيحانة،1 : 520.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

والنّصر الّذي تهزّ له الصّعاد المُلد عطف المترانح المتخايل، فإنّا كتبناه إليكم، كتب الله لكم عزّاً يانع الخمائل، ونصراً يكفل للكتائب المدونة في الجهاد ومرضاة ربّ العباد بسرد المسائل وإقناع السّائل، من حمراء غرناطة حرسها الله! ولا زائد بفضل الله سبحانه إلاّ استبصار في التّوكّل على من بيده الأمور، وتسبب مشروع تتعلّق به بإذن الله تعالى أحكام القدر المقدور، ورجاء فيما وعد به من الظّهور، يتضاعف على توالي الأيّام وترادف الشّهور، والحمد لله كثيراً كما هو أهله، فلا فضل إلاّ فضله، ومقامكم المعروف محله، الكفيل بالإرواء نهلُه وعَلُّه، وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم، وحرس مجدكم، ووالى النّعم عندنا وعندكم، فإنّنا في هذه الأيّام، أهمّنا من أمر الإسلام، ما رنّق الشّراب ونغّص الطّعام، وذاد المنام، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايدته، وسعى الضُّلال، والله الواقي، في استئصال بقيّته، وعقد النّوادي للاستشارة في شأنه، وشروع الحيل في هدِّ أركانه، ومن يؤمَّل من المسلمين لدفع الرّدى وكشف البلوى وبثّ الشّكوى، وأهله حاطهم الله تعالى وتولاّهم، وتمّم عوائد لطفه الّذي أولاهم، فهو مولاهم، في غفلة ساهون، وعن المغبّة فيه لاهون، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم، وعاجلُهم عن آجلهم، وطولُ الأمل، عن نافع العمل، إلاّ من نوَّر الله تعالى قلبَه بنور الإيمان وتململ بمناصحة الله تعالى والإسلام تململ السّليم، واستدلّ بالمشاهد على الغائب، وصرف الكفر إلى مطالب الأمم النّوائب؛ فلمّا رأينا أنّ الدّولة المرينيّة الّتي على ممر الأيّام شجا العِدا، ومتوعّد من يكيد الهدى، وفئة الإسلام الّتي إليها يتحيّز، وكهفه الّذي إليه يلجأ، قد أذن الله تعالى في صلاح أمورها، ولمِّ شعثها... ولو كانت الأشغاب تقطع المعروب وتصرّف عن الواجب لم يفتح المقدّس والدُكم جبل الفتح، وهو منازل أخاه بسجلماسة، ولا أمدَّه ولده السّلطان أبو عنان وهو بمرّاكش، وبالأمس بعثنا على الجبل وسماته في حملة ما أهمنا مبلغ جهد وسداد من عوز، وقد فضّلت عن ضرائرها أموال فرضت من أجل الله على عباده، وطعام سمحْنا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده، فلم يسهم المتغلّب منها لجانب الله بحبّه، ولا أقطعه منها ذرّة مستخفّاً به جلّ وعلا، متهاوناً بنكيره الّذي هو أحقّ أن يخشى،... ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مرين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسّلطان المقدّس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدُكم الّذي تَرِدُ على قبره مع السّاعات والأنفاس وفود الرّحمة، وهدايا الزّلفة، وريحان الجنّة، فلولا أنّكم على علم من أحواله لشرحنا المجمل، وشكّلنا المهمل، إنّما هو اليوم شيخ مائد، وظلل بائد، لولا أنّ الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلاّ إليه، ولا حوّم طيره إلاّ عليه، ولكان بصدد أن يتّخذه الصليب داراً، وأن يقرّبه

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

عينا، والعدوة فضلا عن الأندلس، قد أوسعها شرّاً، وأرهق ما يجاوره عُسرا، نسأل الله تعالى بنور وجهه أن لا يسوّد الوجوه بالفجع فيه،...الخ[1]»

هذه رسالة طويلة في شأن جبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس، وعن حال العدوّ الكافر.

وقد عزا المقرّي الرّسالة إلى السّلطان أبي فارس عبد العزيز ابن السّلطان أبي الحسن المريني؛ وأنّ المراد بالمتغلّب الوزير عمر بن عبد الله ظفر به أبو فارس، واستقلّ بالملك بعد محو أثره[2].

امتازت الرّسالة بأسلوب جزل، بالرّغم من جريانه على طريقة السّجع، فيحتال على السّجع، ويجعله سجعا ضمن سجع، ويطرّز الكلام بأنواع من الجناس والإشارات التّاريخيّة.

وقد أنشأ لسان الدّين على لسان سلطانه، في استنهاض عزم صاحب فاس السّلطان المريني لنصرة الأندلس ما نصّه:

« المقام الّذي يؤثر حظّ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعدّدت المقاصد، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت الموارد، وتشمل عادةُ حلمه وفضله الشّارد، ويَسَع وارف ظلّه الصّادرَ والوارد، والغائب والشّاهد، ويعيد من نصر الله للإسلام العوائد، ويسدُّ الذّرائع ويدرُّ الفوائد، مقام محلّ أخينا الّذي حسنت في الملك سِيَرُه،..[3]»

ومن إنشائه أيضاً رسالة أخرى في الغرض نفسه وجّهها إلى سلطان المغرب على لسان سلطانه ؛ يقول فيها:

« المقام الّذي أقمارُ سعدِهِ في انتظام وانّساق، وجيادُ عزّه إلى الغاية القصوى ذاتُ استباق، والقلوب على حبّه ذاتُ اتّفاق، وعناية الله تعالى عليه مديدة الرِّواق، وأياديه الجمّة في الأعناق، ألزم من الأطواق، وأحاديث مجده سَمَرُ النّوادي وحديث الرّفاق.[4]»

---

[1] النّفح، 5: 303.
[2] المصدر السابق، 5: 308.
[3] المصدر نفسه ، 5: 308.
[4] المصدر نفسه ، 5: 312.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ومن نثره ما أنشأه عن سلطانه الغنيّ بالله حين وصله ابنه الّذي كان بفاس يخاطب سلطان فاس، ما نصُّه:

« المقام الّذي تقلّد نافلة الفضل شفعا، وجود صورة الكمال إفراداً وجمعاً، واستولى وجمع بين المَنح، والتّهنئة بالفتح، فأحرز أصلاً وفرعاً، واستحقّ الشّكر عقلاً وشرعاً، وأغرى أيديَ جوده، بالقصد الدّي هو حظُّ وليّه من وجوده، فأثار من جيش اللّقاء نقعا، ووسط به جمعا[1]، مقام محلّ أخينا...[2]» إلى آخر الرّسالة الّتي يدعو له فيها بالنّصرة، ويشكر له صنيعه.

2. الرسائل الموجهة إلى سلاطين مصر:

وكما عمد لسان الدّين إلى توثيق أواصر الموّدة والمحبة بين مملكة غرناطة ودول المغرب، ولاسيما بني مرين، فإنّه سعى أيضا إلى توثيق أواصر الصّداقة والمودّة بين بلاط غرناطة و بلاط القاهرة ، برسائله الّتي منها رسالة كتبها عن صاحب الأندلس الغنيّ بالله إلى السّلطان المنصور أحمد ابن السّلطان النّاصر محمد بن قلاوون سلطان مصر، يعلمه فيها بأحوال الأندلس، ويطلب منه العون، يقول في إحداها:

«... وافْتُتِحَتِ البلادُ الشّهيرة، وانْتُقِيَتِ العذارى الخِيرة، واقْتُنِيَتِ الذّخيرة، وتجاوز الإسلام الدروبَ وتَخطّى، وخَضَدَ الأرطى، وأركب وأمطى، واستوثق واستوطا، وتثاءب وتمطّى، حتّى تعدّدت مراحلُ البريد، وسَخِنت عيْنُ الشّيطان المريد،

واستوسق للإسلام ملكٌ ضخمُ السُّرادق، مرهوب البوارق، رفيع العمد، بعيد الأمد، تشهد بذلك الآثار والأخبار، والوقائع الكبار، والأوداق والأمطار، وهل يخفى النّهار؟ ولكلّ هبوب ركود، والدّهر حسودٌ لمن يسود، فراجعت الفرنج كرّتها، واستدركت مَعَرَّتها، فدوَّمت جوارحها وحلّقت، وأومضت بوارقها وتألّقت، وتشبَّثتْ وتعلّقت، وأرسلتِ الأعنَّة وأطلقت، وراجعت العقائل الّتي طلّقت، حتّى لم يبق من الكتاب إلاّ الحاشية، ولا من اللّيل إلاّ النّاشية، وسقطت الغاشية، وأخلدت الفئة المتلاشية، وتقلّصت الضّلال الفاشيّة، إلاّ أنّ الله تدارك بقوم رُجّح من سَلَفنا

---

[1] النّقع: الغبار وهنا اقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى :
(فَالمُغِيراتِ صُبْحاً، فأثَرْن به نَقْعاً، فَوَسَطْنَ به جَمْعاً) [العاديات: 4].

[2] النّفح، 8: 54.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

أثبتوا في مستنقع الموت أقدامهم، وأخلصوا للّه بأسَهُم وإقدامهم، ووصلوا سيوفهم البارقة بخُطاهم، وأعطاهم منشور العزّ من أعطاهم، حين تعيَّن الدّينُ وتحيَّز، واشْتَدَّ بالمدافعة وتميَّز، وعادت الحروب سِجالاً، وعلم الرّوم أنّ لله رجالاً، وقد أوفد جدّنا –رضي الله عنه! على أبواب سلفكم من وقائعه في العدوّ كلّ مُبشّرة، ووجوه به مستبشرة، ضحكت لها ثغور الثّغور، وسرَت بها في الأعطاف حُميّاً السّرور، وكانت المراجعة عنها شفاء للصّدور، وتمائم في دُرر النُّحور، وخفراً في وجوه البدور، فإنّ ذمام الإسلام موصول، وفروعه تجمعها في الله أصول، وما أقرب الحزن ممّن دارُهُ صُولٌ، والملّة – والمِنّةُ للّه واحدة، والنّفوس لا منكرة للحق ولا جاحدة، والأقدار معروفة، والآمال إلى ما يوصل إلى الله مصروفة، فإذا لم يكن الاستدعاء، أمكن الدّعاء، والخواطر فعّالة، والكلُّ على الله عَالة، والدّين غريب والغريب يحنُّ إلى أهله، والمرءُ كثيرٌ بأخيه على بُعد محلّه»[1].

لقد تحدّث السّلطان الغرناطي بقلم لسان الدّين عن موقف غرناطة، وانقطاعها أمام النّصارى في شبه الجزيرة، وصراعها مع العدوّ، وكون البحر يحول بينها وبين دار الإسلام، ثمّ يقصّ قصّة خروج أخيه عليه، وهو غائب عن قصره، وقيامه باغتصاب ملكه، وانصراف النّاس إليه، ومغادرته للأندلس، ونزوله برحاب بني مرين حتّى نصره الله، واسترد المخلوع ملكه ولقد علّق عبد العزيز عتيق على هذه الرّسالة قائلا: « والرسالة طويلة مسجوعة، وهي مشحونة بالنّعوت والأدعية، فلكلّ اسم ومكان ذُكر فيها نعوتٌ وأدعية تصل في كثرتها إلى حدّ السّأم والإملال، ثم تنتهي أخيرا إلى الغرض منها، فتعبِّر عنه في كلمات يغلب عليها التّلميح لا التّصريح، وذلك إذ تقول: "...فإنّ ذمام الإسلام موصول، وفروعه تجمعها في الله أصول،... والملّة – والمِنّةُ للّه واحدة، والنّفوس لا منكرة للحق ولا جاحدة، والأقدار معروفة، والآمال إلى ما يوصل إلى الله مصروفة، فإذا لم يكن الاستدعاء، أمكن الدّعاء، والخواطر فعّالة، والكلُّ على الله عَالة، والدّين غريب والغريب يحنُّ إلى أهله، والمرءُ كثيرٌ بأخيه على بُعد محلّه "»[2].

وابن الخطيب لم تكن تحدوه في هذه الرّسالة بواعث ماديّة، أو فكرة استنهاض لمعاونة مصر العمليّة، فهو يوقن أنّ ذلك متعذّر لبعد الشّقّة، وإنّما كانت تحدوه بواعث أدبيّة[3]، وكتبها بهذه الطّريقة المسجوعة المنمَّقة حتّى يُبدي للمشرق براعته الأدبيّة.

---

[1]) المصدر السابق، 1: 257.
[2] الأدب العربي في الأندلس: 469.
[3] لسان الدين بن الخطيب ،حياته وتراثه الفكري : 186.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وهذه رسالة أخرى كتبها على لسان سلطانه إلى نائب السّلطان بمصر الأمير يلبغا العمري الخاصكي يقول فيها:

« إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين، المقلّد بتدبيره السّديد قلادة الدّين، المثني على رسوم برّه لمقامه لسان الحرم الأمين، الآوي من مرضاة الله تعالى ورسوله –صلّى الله عليه وسلّم إلى ربوة ذات قرار ومعين، المستعين من الله تعالى على تحمّله وأمله بالقويّ المعين، سيّد الدّعوة، ركن الدّولة، قوام الملّة، مؤمل الأمّة، تاج الخواصّ، أسد الجيوش، كافي الكفاة، زين الأمراء، علم الكبراء، عين الأعيان، حَسَنة الزّمان، الأجلّ المرقّع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظّم الموقر الأمير الأوحد يلبغا الخاصكي، وصل الله له سعادة تشرق غُرَّتها!

وصنائع تسحّ فلا تشحُّ درتها! وأبقى تلك المثابة قلادة الله تعالى وهو درتها.

سلام كريم، طيّب عميم، يخصُّ إمارتكم الّتي جعل الله تعالى الفضل على سعادتها أمارة، واليُسرَ لها شارة، فيساعد الفلك الدوّار مهما أعملت إدارة، وتمتثل الرّسوم كلمّا أشارت إشارة.

أمّا بعد حمد الله تعالى الّذي هو يعلمه في كلّ مكان، من قاصٍ ودان، وإليه توجّه الوجوه وإن اختلفت السّير وتباعدت البلدان، ومنه يلتمس الإحسان، وبذكره ينشرح الصّدر ويطمئنّ القلب ويمرح اللّسان، والصّلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشّان، ونبيّه الصّادق البيان، الواضح البرهان، والرّضا عن آله وأصحابه وأحزانه أحْلاس الخيل، ورهبان اللّيل، وأسُود الميدان، والدّعاء لإمارتكم السّعيدة بالعزّ الرّائق الخبر والعِيان، والتّوفيق الوثيق البنيان، فإنّا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم حظّاً من فضله وافراً، وصنيعا عن مُحيّا السّرور سافرا، وفي جوّ الإعلام بالنّعم الجسام مسافراً! من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد العُداة، وأتحف نَصْلها ببواكر النّصر المهداة، ولا رائد إلاّ الشّوق إلى التّعارف بتلك الأبواب الشّريفة الّتي أنتم عنوان كتابها المرقوم، وبيت قصيدها المنظوم، والتماس بركتها الثّابتة الرّسوم، وتقرير المثول في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذّره بالجسوم، وإلى هذا فإنّنا كانت بين سلفنا تَقَبَّل الله تعالى جهادهم، وقدّس نفوسهم، وأمن مَعادهم، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها، مراسلةٌ ينمُّ عَرْفُ الخلوص من خلالها، وتسطع أنوار السّعادة من آفاق كمالها، وتلتمح من أسطار طروسها محاسن تلك المعاهد الزّاكية المشاهد، وتُعرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد، اشْتَقنا إلى أن نجدّدها بحسن منابكم، ونواصلها بمواصلة جنابكم،

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ونغتنم في عَوْدها الحميد مكانكم، ونؤمل لها زمانكم، فخاطبنا الأبواب الشّريفة في هذا الغرض مخاطبة خجِلة من التقصير، وَجِلة من النّاقد البصير، ونؤمل الوصول في خفارة يدكم الّتي لها الأيادي البيض، والموارد الّتي لا تغيض، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله، ولا تضحى المآملُ في ظلِّ خمائله، فقد اشتهر من حميد سيركم ما طبّق الآفاق، وصحب الرفاق، واستلم الإصفاق، وهذه البلاد مباركة، ما أسلف أحد فيها مشاركة، إلاّ وجدها في نفسه ودينه وماله وعياله، والله سبحانه أكرم من وفى لامرئ بمكياله، والله عزّ وجلّ يجمع القلوب على طاعته، وينفع بوسيلة النبي–صلّى الله عليه وسلّم الّذي نعوّل على شفاعته، ويُبقي تلك الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين، وظلاً لله تعالى على العالمين، وإقامة لشعائر الحرم الأمين، ويتولّى إعانة إمارتكم على وظائف الدّين، ويجعلكم ممّن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين، والسّلام الكريم يخصّكم ورحمة الله تعالى وبركاته».[1]

وهي رسالة يشير فيها إلى ما كان بين ملك غرناطة وسلطان مصر، من المراسلات الودّية، ويبعث إليه بسلامه وتقديره ويعرب عن أمله في تجديد العهد، ويدعو بأن تبقى الأبواب السّلطانية حصنا للإسلام وملجأ للمسلمين.

وقد تضمنت الرّسائل السّياسية والدّيوانية معاني شتّى كالاعتذار، والشّفاعة، والعزاء، والتّهاني، والتّوسّل، والشّكر، وتقرير المودّات، والفتوحات الواقعة...وغيرها.

1. الاعتذار:

كتب لسان الدّين بن الخطيب عن سلطان الأندلس إلى سلطان فاس المريني، معتذرا عن فرار الأمير أبي الفضل المريني، ما نصّه:

« المقامُ الّذي شهد اللّيلُ والنّهار بأصالة سعادته، وجرى الفلك الدوّار بحكم إرادته،... فنحن نهنّيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من إعانته أوقى جُنَنِه، فأملنا أن تطّرد آمالكم، وتنجح في مرضاة الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة الّتي يُدفَعُ العدوُّ بسلاحها، وتنبلج ظلمات صفاحها، وكيف لا نُهنّيكم بصنع على جهتنا يعود، وبآفاقنا تطلع منه السّعود، فتيقّنوا ما عندنا من الاعتقاد الّذي رسومه قد

[1] النّفح، 7: 370.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

استقلّت واكتفت، ودِيَمُهُ[1] بساحة الودّ قد وَكَفت، والله عزّ وجلّ يجعل لكم الفتوح عادة، ولا يعدمكم عناية وسعادة، وهو سبحانه يعلي مقامكم، وينصر أعلامكم، ويهني الإسلام أيّامكم، والسّلام الكريم يخصّكم، ورحمة الله وبركاته.»[2].

امتازت الرّسالة بحسن اختيار الألفاظ وتنويع الأسلوب بالاقتباس والتّضمين من القرآن الكريم؛ فلسان الدّين يستشهد في كثير من رسائله بآيات قرآنية[3]، كما يتوسّل بالدّعاء كذلك في آخر الرّسالة.

(1) الديم: جمع ديمة، وهي المطر الدّائم، ووكفت: تتابع نزولها.
(2) النفح، 5: 315.
(3) عندما قال: (فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً) سورة الجن: الآية 9.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

2. الشفاعة :

هناك رسالة من إنشاء لسان الدّين عن سلطانه أبي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر خاطب أبا عنان في شأن والي مَرْبَلّة أبي زكريا البرقاجي وقد تقاعد بأحواز جبل الفتح عندما انفصل عن ولاية مربلّة[1] قال فيها:

«المقامُ الّذي له القدر الرّفيع، والعزّ المنيع، والمكارم الّتي حسن منها الصَّنيع، مقام محلّ أخينا الّذي نعظم جانبه ونتمم من الإجلال واجبه، ونشكر في سبيل الجهاد مذاهبه... قررنا عندكم عُذْرَه في مقامه [لتكونوا على علم من اجتهاده في خدمتكم وجدّه وما بذله من حميد سَعْيه وحسن قصده] [وجنابكم لا تضيع عنده وسيلة ولا تلتبس منها لديه مخيّلة] وبادرنا إلى تعريف مقامكم بذلك وإعلامه، لتكونوا على يقين، وسبيل مُبين، ونظركم في ذلك أعْلى، وبكلّ جميل أولى، والله يصل سعادتكم، ويوالي رفعتكم، والسّلام الكريم يخصّ مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته. » [2]

وكتب لسان الدّين عن سلطانه رسالة إلى أبي فارس المريني في الشّفاعة لابن مرزوق في الغرض ذاته، قال فيها:

«المقام الّذي نؤكّد إليه ببرّ سلفه الوداد، ونغري بتخليد فخره وأمره القلمَ والمداد، ونصل به الاستظهار على عدوّ الله تعالى والاستعداد، ونخطب له من الله بهزِّ أعطافه للخير والتّوفيق والسّداد، والإعانة منه والإمداد، مقام محلّ أخينا الّذي اشتهر فضله ودينه، ووضح سعده متألّقةً براهينه،... من حمراء غرناطة –حرسها الله تعالى عن خير هامي السّحاب، وبشر مفتح الأبواب، وعزّ للإسلام، ببركة الاعتداد بملككم المنصور الأعلام، مقتبل الشّباب، ويمن ضافي الجِلباب، والحمد للّه على تضافر الأيدي في ذاته وتوفّر الأسباب، وجانبكم الرّفيع الأمل للمنتاب، إذا حَدَتِ الحداةُ ذوات الأقتاب[3]، ومطمح الوسائل المطرّزة المسائل بتصحيح الود اللُّباب، وإلى هذا وصل الله تعالى سعيكم بسوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب، وجعل ما عجل لكم من نعمة وآلائه كفيلة بالزّلفى وحسن المتاب، وألهمكم تقييد شواردها بالشّكر قولاً وعملاً فالشّكر مستدعي المزيد كما ورد في الكتاب[4]، فإنّ من المنقول الّذي اشتهر، وراق فضله وبَهَر، قوله: "اشغعوا تؤجروا" وما في

---

(1) مربلة: ثغر أندلسي صغير يقع على شاطئ البحر المتوسط جنوبي غربي مالقة وشمال شرقي جبل طارق.

(2) الرّيحانة، 1: 345.

(3) ذوات الأقتاب: أي النّوق.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُم)، سورة إبراهيم، الآية:7.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

معناه من المعتبر في الخبر وتنفيس كربة عن مسلم، وسماع شكوى من متظلّم؛ ولولا أنّ مقامكم السّنيّ أغنى، لجلبنا الكثير من هذا المعنى، ولمّا تحقّق ما أنتم عليه من سلوك سبيل والدكم الملك الصّالح –قدّس الله تربته، وضاعف قربته من يمن الظفر، وسلوك سبيل الخير، وإقامة رسول الدّين، والاهتداء من هَدْيه بالنّور المبين، خَفَّ علينا أن نقصدكم بالشّفاعات مع السّاعات، ونتّجر لكم مع الله بأنفس البضاعات، فما أثمر من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حقيقة وشكرناكم عليه شريعة، وما تأخّر أوسعناكم فيه عذراً يسدّ ذريعة، وعلمنا أنّ الله تعالى لم يأذن في تعجيله، وسألناه في تيسيره وتسهيله...»[1]

هذه الرّسالة موجّهة إلى أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، وكان ابن مرزوق[2] مشرفاً على دولة أبي سالم أخي أبي فارس، فقتله الوزير عمر بن عبد الله الفُودُودِي، واستولى على الملك، وسجن ابن مرزوق، ورام قتله، ثمّ إنّ أبا فارس ثار على الوزير المتغلّب وقتله، واستقلّ بالملك، فخوطب في شأن ابن مرزوق بهذه الكلمات الرّنّانة، والعبارات المؤثّرة.

3. العزاء:

أمّا في غرض العزاء فصدرت عنه رسالة موجّهة إلى أبي عنان يقول فيها:

« المقام الّذي صبرُه في النّوائب جميل، وشكره على المواهب بالمزيد كفيل، وفضله لا يلتبس منه سبيل، ومحكم مجده لا يتناوله تأويل، مقام محلّ أخينا الّذي استولى على غايات الكمال مجده، ورفع راية العناية الإلهيّة سعدُه، واشتهر في مقام الصّبر صبره، وفي مقام الشّكر شكره وحمده، وشقّ نور قلبه بإلهام من ربّه، فأخلص ضميره لمن يودُّه، السلطان الكذا أبي عنان ابن السلطان الكذا أبي الحسن ابن السلطان الكذا أبي سعيد ابن السلطان الكذا أبي يوسف بن عبد الحق، أبقاه الله مشكور المساعي والخلال،... فإنّا وصلنا كتابكم المرقّع، عرفتمونا فيه بما كان من استبشار الله محلّ والدنا السّلطان الباهر العالي، الّتي اعترفت بعظيم قدره ألسنة الأيّام واللّيالي، والدكم تغمّد الله لحْده من الرّحمة بغمام، وحشره في زمرة من يخاطب عند باب الجنّة ادخلوها بسلام، فلو لم يكن له من المآثر الّتي يستحقّ بها الحمد، ويسترقّ المجد، إلاّ أن كنتم سُلالته، وورثتم بالحقّ جلالته، لكان فخراً

---

[1] النّفح، 2: 276.

[2] هو الإمام الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني من أساطين علماء المغرب وفقهائها في أواسط القرن الثّامن الهجري، ولد بتلمسان سنة 711هـ، وتوفيّ بالقاهرة سنة 781هـ.

- ينظر ترجمته في "البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان"، لابن مريم، مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م :258.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

لا ينازع في حقّه، ولا يضايق في طرقه، فإنّا لله تسليما لحكمه الحتم، و تفويضا إلى أمره الجزم، سبيل مبين، وقصد يدعو إلى الصّبر فيه عقل ودين، من ذا الّذي سالم الأيّام فسلم من غوائلها...إلخ[1]».

وهناك رسائل أخرى في غرض العزاء[2] تميّزت كلّها بحسن الصّياغة، وبلاغة الأسلوب ودقّة التّصوير.

4. التهاني:

وأمّا في غرض التّهاني بالصّنايع، فقد صدر عن لسان الدّين بن الخطيب رسائل كثيرة، منها جواب للسّلطان أبي عنان عن كتابه الّذي وجهّه إلى سلطان الأندلس أبي الحجاج بن نصر، يعرفّه فيه بما أتاح الله له من الظّهور على بني زيّان، واستيلائه على ملكهم بمدينة تلمسان[3]، وأخرى لمّا وصلت الأخبار بنجاة ملك المغرب السّلطان أبي الحسن، من هول البحر لمّا هلك معه الجماعة من أعلام ناسه بأحواز الجزاير[4].

وممّا صدر عنه أيضا في غرض التّهنئة رسالة هنّأ فيها السّلطان أبا سالم ملك المغرب[5].

---

(1) الرّيحانة، 1: 326.
(2) المصدر نفسه : 330 340؛ و كذلك في النّفح، 8: 116.
(3) الرّيحانة، 1: 216.
(4) المصدر نفسه: 254.
(5) المصدر نفسه : 289.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

5. التوسل والشكر:

وفي غرض التّوسّل والشّكر هناك رسالة من ابن الخطيب إلى السّلطان أبي سالم، وذلك بعد رجوع لسان الدّين من مرّاكش واستقراره في مدينة سلا برباط شالة مدفن السّلاطين من بني مرين، ومنهم السّلطان أبو الحسن والد السّلطان أبي سالم، يتضرّع فيها أن يعاونه على استرداد أمواله بالأندلس، يقول:

« مولاي المرجوّ لإتمام الصّنيعة وصِلَةِ النّعمة وإحراز الفخر، أبقاكم الله تعالى، تضرب بكم الأمثال في البر والرّضا، وعلوّ الهمّة ورعي الوسيلة، مقبل موطئ قدمكم، المنقطع إلى تربة المولى والدكم، ابن الخطيب، من الضّريح المقدّس بشالة...[1]»

وقد أُرِّخت هذه الرّسالة في اليوم الحادي عشر من شهر رجب سنة **761هـ**؛ وقد كان لهذا التّضرّع البليغ المبكى، أثره في نفس السّلطان أبي سالم، فبادر على تحقيق التماس ابن الخطيب، وبعث إلى الأندلس بسَفِيريه أبي البقاء بن باسكورت، وأبي زكريّا ابن فرقاجة، ليسعيا في الإفراج عن أموال ابن الخطيب الّتي نزعت منه بالأندلس، وكتب إلى ابن الخطيب، يخبره بما كان لتوسّله بضريح والده، من الأثر في نفسه.

وقد راجع ابن الخطيب السّلطان أبا سالم، عند ورود رسالته إليه برسالة أخرى يشكر له عنايته واهتمامه بأمره، ويكرّر التّوسّل إليه بقبر أبيه يستهلّها بقوله:

« مولاي خليفة الله بحقّ، وكبير ملوك الأرض عن حجّة، ومعدن الشّفقة والحرمة، برهان و حكمة، أبقاكم الله عالي الدّرجة في المُنعّمين، وافر الحظّ عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة برّ أبيكم، في البنين، وصنع لكم في عدوّكم الصّنع الّذي لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم من أراد في مثابتكم بإلحاد، عبدكم الّذي ملكتم رقّه، وآويتم غربته، وسترتم أهله و ولده، وأسنيتم رزقه، و جبرتم قلبه،...[2]».

في هذه الرّسالة ابن الخطيب يعرب عن غبطته ،ويسدي عميق شكره وولائه، ويغرق في التّوسّل والدّعاء، ويشيد مرّة أخرى بذكرى أبي الحسن.

---

[1] النّفح، 7: 146؛ و لسان الدّين بن الخطيب، حياته و تراثه الفكري: 326.
[2] النّفح، 7: 144؛ ولسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري: 331.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وعندما أصدر أبا زيان ظهيره بتجديد ما كان يتمتّع به ابن الخطيب من الحقوق والمنح والحرّيات، فبعث ابن الخطيب برسالة يشكره فيها على ما حباه به من العطف قائلا :

« المولى الّذي طوّق المنن، وأحيا السّنن، وأنبت الله تعالى حبّه في القلوب النّبات الحسن، ناظم كلمة الدّين بعد انتثارها، ومقيل عثارها والآخذ بثارها، والمخلّد لآثارها السّلطان أبو زيّان...أبقاكم الله تعالى عالي القدم، منصور العلم، ظاهراً على الأمم، مقصود الحمى كالرّكن الملتزم، عبد مقامكم الّذي آويتموه غريباً، وآنستموه مريباً، وأنلتموه على عدوّه الدّهر نصراً عزيزاً، وفتحاً قريباً، فلم يخش دركا وتثريبا، ولا عدم حظوة و شفقة ونعمة وتقريبا، ابن الخطيب، عن ثناء يعطّر الآفاق، ويرقم الأوراق، ويخرق الجيوب والأطواق، وحبّ بهر نورا وراق...[1]».

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كتاب "الرّيحانة" قد تضمّن مجموعة من الرّسائل في غرض الشّكر على الهدايا الواردات[2].

6. المودّات وعقد الصلات :

وفي غرض المودّات، هناك رسالة من الغنيّ بالله إلى السّلطان أبي عنان، حملها ابن الخطيب في سفارته إليه، وكانت من إنشائه، قال فيها:

«المقام الّذي يغني عن كلّ مفقود بوجوده، ويهزّ إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده، ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده، ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الوالد عن آبائه وجدوده، مقام محلّ أبينا، الّذي يرعى الأذمة شأنه، وصلة الرّاعي سجيّة انفرد بها سلطانه، ومواعيد النّصر ينجزها زمانه، والقول والفعل في ذات الله تعالى تكلّفت بهما يده الكريمة ولسانه، وتطابق فيهما أسراره وإعلانه، السّلطان الكذا ابن السّلطان الكذا ابن السّلطان الكذا، أبقاه تعالى محروسا من غير الأيّام جنابه، موصولة بالوقاية الإلهيّة أسبابه، مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه، مصروفا عنه من صروف القدر ما يعجز عن ردّه بوّابه، ولا زال ملجأ تتّفق لديه الوسائل الّتي تدّخرها لأولادها، أولياؤه وأحبابه، ويسطر في صحف الفخر ثوابه، وتشتمل على مكارم الدّين والدّنيا أثوابه، وتتكفّل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيّام كتائبه وكتابه، معظم ما عظم من حقّه السّائر من إجلاله وشكر خلاله، على لا حبّ طرقه،

---

[1] لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري: 332.

[2] الرّيحانة، 1: 388 423.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه، الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر، سلام كريم طيّب برّ عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، ورحمة الله تعالى وبركاته، أمّا بعد حمد الله الّذي لا رادّ لأمره، ولا معارض لفعله، مصرّف الأمر بقدرته وحكمته وعدله، الملك الحقّ الّذي بيده ملاك الأمر كلّه، مقدّر الآجال والأعمار، فلا يتأخّر شيء عن ميقاته، ولا يبرح عن محلّه، جاعل الدّنيا مناخ قلعة، لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظلّه، وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حلّه، والصّلاة والسّلام على سيّدنا ومولانا محمد صفوة خلقه، وخيرة أنبيائه وسيّد رسله، الّذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسّك بحبله، ونمدّ يد الافتقار إلى فضله، ونجاهد في سبيله من كذّب به أو حاد عن سبله، ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله، والرّضا عن آله وأحزابه ونصاره و أهله...».

ثمّ يقصّ الغنيّ بالله في خطابه قصّة مصرع أبيه السّلطان أبي الحجاج: « نعرفكم بعد الدّعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه، وإمتاع المسلمين ببقائه، بما كان من وفاة مولانا الوالد، نفعه الله تعالى بالسّعادة الّتي ألبسه حلّتها، والشّهادة الّتي في أعماله الزّكيّة كتبها، والدّرجة العالية الّتي حتّمها له وأوجبها، وبما تصير إلينا من أمره، وضمّ بنا من نشره، وسدل على من خلفه من ستره، وإنّها لعبرة لمن ألقى السّمع، وموعظة تهزّ الجمع، وترسل الدّمع، وحادثة أجمل الله سبحانه فيها الدّفع، وشرح مجملها، وإن أخرس اللّسان هولها، وأسلم العبارة قوتها وحولها، إنّه رضي الله تعالى عنه، لما برز لإقامته سنة هذا العيد، مستشعراً شعار كلمة التوحيد، مظهراً سِمة الخضوع للمولى الّذي تضرّع بين يديه رقاب العبيد، آمنّا بين قومه وأهله، متسربلاً في حلل نعم الله تعالى وفضله، قرير العين باكتمال عزّه واجتماع شمله، قد احترس بأقصى استطاعته، استظهر بخلصان طاعته، والأجل المكتوب قد حضر، والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر، وسجد بعد الرّكعة الثّانية من صلاته، أتاه أمر الله لميقاته، على حين الشّباب غض جلبابه والسّلاح زاخر عبابه، والدّين بهذا القطر قد أينع بالأمن جنابه، وأمر من يقول للشّيء كن فيكون قد بلغ كتابه، ولم يرعه، وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب، وخلصت الرّغبات إلى فضله المطلوب، إلا شقي قيضه الله لسعادته، غير معروف ولا منسوب، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب، تخلل الصّفوف المعقودة، وتجاوز الأبواب المسدودة، وخاض الجموع المشهودة، والأمم المحشورة إلى طاعة الله المحشودة، لا تدلّ العين عليه شارة ولا بزّة، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزّة، إنّما هو خبيث مرور، وكلب عقور، وحية سُمُّها وحي محذور، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور، فلمّا طعنه وأثبته، وأعلق به شرك الحين فما أفلته، قبض عليه من الخلصان الأولياء من خبر ضميره، وأحكم تقريره، فلم يجب

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

عند الاستفهام جواباً يعقل، ولا عثر على شيء عنه ينقل، لطفاً من الله أفاد براءة الدّمم، وتعاورته للحين أيدي التّمزيق، وأتبع شلوه بالتّحريق، واحتمل مولانا الوالد رحمه الله تعالى، إلى القصر، وبه دماء لم يلبث بعد الفتكة العمريّة إلاّ أيسر من اليسير، وتخلّف الملك ينظر من الطّرف الحسير، وينهض بالجناح الكسير...».

ويصل الرّسالة بخبر مخاطبته صاحب قشتالة بغرض إبرام عقد هدنة وسلم، فيقول:

« وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده في صلة السّلم إلى أمدها من الأخبار، واتّصلت بنا البيعات من جميع الأقطار، وعفّى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار، واستبقوا تطير بهم أجنحة الابتدار، جعلنا الله تعالى ممّن قابل الحوادث بالاعتبار، وكان على حذر من تصاريف الأقدار، واختلاف اللّيل والنّهار، وأعاننا على إقامة دينه في هذا الوطن الغريب، المنقطع بين العدوّ الطّاغي ولبحر الزّخّار...».

ويعرب عن أمله في تجديد أواصر المحبّة والصّلة الّتي كانت بينه وبين السّلطان أبي عنان، قائلاً:

« وإن فقدنا والدنا، فأنتم لنا من بعده الوالد، والذّخر الّذي تكرم منه العوائد، والحب يتوارث كما ورد في الأخبار الّتي صحت منها الشّواهد، ومن أعد مثلكم لبنيه، فقد تيسّرت من بعد الممات أمانيه، وتأسّست قواعد ملكه وتشيّدت مبانيه، فالاعتقاد الجميل موصول، والفروع لها في التّشيُّع إليكم أصول، وفي تقرير فخركم محصول، وأنتم ردء المسلمين بهذه البلاد المسلمة، الّذي يعينها بإرفاده، وينصرهم بإنجاده، ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده،...».

ثم يختم رسالته راجيّا أن يجد وزيره ابن الخطيب ما يحقّق الآمال في التّعويل على ذلك المقام الأسنى:

« فوجّهنا إليكم وزير أمرنا، وكانت سرنا، الفقيه الأجل أبا عبد الله محمد بن الخطيب، وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى، واستنادنا من التّشيّع غليه إلى الرّكن الوثيق المبنى، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأغنى، والثّمرة العذبة المجنى، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد، الّذي هو أساس بنائنا، وقامع أعدائنا، آثرنا توجيهه، على توفّر الاحتجاج إليه، ومدار الحال عليه، والمرغوب من أبوّتكم المؤملة، أن يتلقّاه قبولها بما يليق بالملك العالي، والخلافة السّامية المعالي، والله عزّ وجلّ يديم أيّامكم بصلة الفضل المتوالي، ويحفظ مجدكم

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

من غير الأيّام واللّيالي، وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نصركم وعضدكم. والسّلام الكريم يخصّكم ورحمة الله وبركاته»[1].

7. الفتوحات:

ولقد كتب لسان الدّين رسائل ديوانية في غرض آخر وهو الفتوحات المنجزة، فوصف بعض الحوادث التّاريخية، كوصف الوقائع الحربية الّتي جرت، فذكر مثلا، حادثة سنة 768هـ الّتي خرج فيها الغني بالله إلى الغزو وزحف على مدينة جيّان الحصينة وحاصرها بشدّة، ثمّ اقتحمها بعد معارك شديدة واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسّلاح والمتاع، وأسروا جموعا كثيرة من النّصارى في محرّم سنة 769هـ، فصدرت مخاطبة من سلطانه إلى سلطان المغرب[2] من إملاء لسان الدّين ما نصّه:

« المقام الّذي نبادر أبوابه بالبشرى، مردفة أوّلها بالأخرى، ونستظهر بعزيمته الكبرى، متى أعضل الدّاء واستشرى، فهو الأولى بالحالتين والأحرى، ومقام محلّ أخينا، الّذي أقامت دولته أسواق البشاير والتّهاني، وتكفّلت سعادته للإيمان بتسنّى الأمان، وتأتي الأماني، السّلطان الكذا أبو فارس ابن السّلطان الكذا أبي الحسن ابن السّلطان الكذا أبي سعيد ابن السلطان الكذا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق،...»[3].

وهناك رسائل أيضا عن حوادث الأندلس والغزوات السّلطانيّة في أرض النّصارى.

ففي شهر ربيع الأوّل من عام تسعة وستّين وسبعمائة كانت الحركة إلى مدينة أبّدة، فصدرت عن لسان الدّين رسالة مخاطبا سلطان المغرب على لسان سلطانه بما نصّه:

« المقام الّذي نعاطيه أكواس المسرّات دراكا، ونجعل له في الفتوح وثوابها الممنوح اشتراكا، ونتحفه بالأنباء الشّاهدة بخلوص الولاء على الولاء سكونا أو حراكا، مقام محلّ أخينا الّذي شأنه السّرور بما يفتح الله على المسلمين والإسلام، والابتهاج بما اجتلاه الدّين الحنيف من سعادة الأيّام، والمساهمة الّتي تليق بمثله

---

(1) النّفح، 5: 318؛ الريحانة، 1: 464؛ لسان الدّين حياته وتراثه الفكري: 325.
(2) هو السّلطان أبو فارس عبد العزيز المريني الّذي حكم من سنة 767هـ 774هـ.
(3) الرّيحانة، 1: 170؛ لسان الدّين حياته وتراثه الفكري: 367.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

من الملوك الأعلام، السّلطان الكذا، أبي فارس ابن السّلطان الكذا أبي الحسن ابن السّلطان الكذا أبي سعيد ابن السّلطان الكذا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أبقاه الله،... واستيناف احتشاد إلى مدينة أبّدة لنهيض منها ثاني جُنْحي الكُفر، ونؤَمّن الجهات الشّرقية بفضل الله عادية الضر،...»[1].

لقد تنوعت الموضوعات التي عالجتها هذه الرسائل، وتباينت مقاصدها، وتعددت أشكالها، فكانت مضامينها تعكس معالم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية؛ فمن الرسائل تلك التي تحدثت عن المعارك والغزوات، والتي تقوم على البشارة بفتح والإخبار عنه، أو التي تقوم على الاستنجاد والاستغاثة.

كما صوّرت هذه الرسائل كثيرا من الأحداث السياسية المهمة في ذلك الوقت مثل اغتيال أبي الحجاج، والإطاحة بمحمد الخامس...؛ كما صورت طبيعة العلاقة التي ارتبطت بها مملكة غرناطة آنذاك مع غيرها من الدول الإسلامية.

وأما البناء الفني لهذه الرسائل الديوانية، فكان يلتزم براعة الاستهلال وحسن الافتتاح المشتمل على فن التحميد ، أما المطلع فكانت مخاطبة السلاطين بالمغرب تبتدئ بذكر "المقام" بعد ذلك يقول: "محل أخينا، أو محل والدنا،..."، ومخاطبة السلاطين بمصر تبدأ بلفظ "الأبواب"[2]، ثم إهداء السلام والإتحاف بالتحايا وشرح الأشواق والإفصاح عن مشاعر المحبة نحو المخاطب ،كذلك ذكر المدينة التي أرسل منها خطاب سلطانه وهي في جميع الرسائل "مدينة غرناطة" باعتبارها قصبة حكم الدولة النصرية ، وكان ملوك بني الأحمر يحرصون على إرسال الرسائل الديوانية من قصر حمرائها [3]، ثم يدخل إلى غرضه ، ومن ثم يختم الرسالة بالدعاء والسلام، مع الإشارة أحيانا إلى تاريخها.

المبحث الثّاني: رسائل ابن الخطيب الإخوانية

لقد ترك ابن الخطيب عدداً من الرسائل الإخوانية الّتي كان يتبادلها مع شيوخه، وأقرانه، وأكابر معاصريه...

---

[1] الرّيحانة، 1: 178؛ لسان الدّين حياته وتراثه الفكري: 373.

[2] ينظر النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، عبد الحليم حسين الهروط، جامعة الحسين بن طلال، الأردن، ط1، 2006 م، دار جرير للنشر والتوزيع: 46.

[3] ينظر فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، محمد مسعود جبران ،1: 142.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فمن إخوانه الأدباء التونسيين الذين خاطبهم برسائله الإخوانية نذكر ابن خلدون، وابن العشاب وغيرهم [1].

ومن الكتاب و الأعيان الذين واصلهم في المغرب الأقصى برسائله الإخوانية ابن رضوان، وابن نفيس.

وكاتب برسائله الإخوانية من أدباء المغرب الأوسط (الجزائر) ابن مرزوق.

1.رسالة إلى ابن مرزوق:

ومن الرّسائل الإخوانية رسالة وجّهها إلى ابن مرزوق، ردّاً على رسالة رقيقة منه، تفيض مودّة وترحيباً، صَدّرَها بقوله:

رَاحتْ تُذكّرُنِي كُؤُوسَ الرّاح ❁ والقُربُ يخفِضُ للجُنُوح جَنَاحِي

وَسَرَتْ تَدُلُّ عَلى القَبُول كَأنَّمَا ❁ دَلَّ النَّسِيمُ عَلى انبلاج صَبَاح

سيّدي أبقاك الله لعهد تَحْفَظُه، وولاء بعين الوفاء تَلْحَظُه، وَصَلْتِنِي رُقْعتك الّتي أبدعَت، وبالحقّ من مولى الخليفة صَدَعت، وألْفَتْني وقد سَطتْ بي الأوجال، حَتّى كادت تتلف الرّحال، والحاجة إلى الغذاء قد شمّرت كشح البطين، وثانية العَجْماوين قد توقع فوات وقتها، وإن كانت صلاتُها صلة الطّين، والفكر قد غاض مَعينُه، وضَعُف وعلى الله جزاء المولى الّذي يُعينه، فَغَزَتْني بكتيبة بيان أسدُها هصور، وعلمها منصور، وألفاظها ليس فيها قُصُور، ومعانيها عليها الحُسن مقصور، واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حولٌ ومِنَّة، وقول "لا أدري" للعالم فكيف لغيره جنّة».

ثمّ يقول مشيراً إلى رسالة ابن مرزوق: « لكنّها بَشّرتني بما يقِلُّ لمُؤدّيه بذلُ النُّفوس وإن جَلّتْ، وأطلعتني من السّراء على وجه تحسده الشّمس إذا تجلّت، بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيّده الله في عَبْده، وصِدْق المَخيلة في كرم مجده، وهذا هو الجود المحض، والفضلُ الّذي شكره هو

[1] أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، ابن الخطيب :98.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الغرض، وتلك الخلافة المولويّة تتّصف بصفات من يبدأ بالنّوال، من قبل الضّراعة والسُّؤال».[1]

وتحمل رسالة ابن الخطيب تاريخ اليوم السّابع والعشرين لذي القعدة سنة 755هـ، وهو ما يحدّد تاريخ مقدمه إلى فاس.

وفي هذه الرّسالة الموجّهة إلى ابن مرزوق، ما يشير بوضوح إلى الدّور الّذي قدّمه صديقه الفقيه الخطيب ابن مرزوق من خدمات، وما بذله من المساعي التّمهيديّة في تسهيل مهمّة السّفير الأندلسي.

2. رسالة إلى ابن خاتمة:

لقد وجّه ابن خاتمة[2] رسالة إلى ابن الخطيب، لمّا بلغه أنّه ينوي مغادرة الأندلس إلى المغرب، وأنّه يسعى لدى السّلطان ليأذن له في الرّحيل[3]؛ فأجابه ابن الخطيب بقوله:

لُمْ في الهوى العُذريّ أو لا تَلُمْ ❁ فالعذْلُ لا يَدْخُلُ أسْمَاعي

شَأنُك تَعْنيفي وشَأْنِي الهوى ❁ كلُّ امرئٍ في شأنه ساعي

أهلا بتحفة القادم، وريحانة المُنادم، وذكر الهوى المتقادم، لا يصغّر الله مسْراك! فما أسراك، لقد جبتَ إليَّ من همومي ليلاً، وجستَ رجْلاً وخيلاً، ووفّيت من صاع الوفاء كيلاً، وظننتَ بي الأسف على ما فات، فأعملت الالتفات لكيلا، فأُقسم لو أنّ الأمرَ بيدي، أو كانت اللّمّة السّوداء من عُددي، ما أفلت أشراكي المنصوبة لأمثالك، حول المياه وبين المسالك، ولا علمت ما هنالك، لكنّك طَرَقْت حِمى كَسَعَتْه الغارة الشّعواء، وغيّرت رَبْعه الأنواء، فخمد بعد ارتجاجه، وسكت أُذينُ دجاجه، وتلاعبت الرّياحُ الهوجُ فوق فِجاجه، وطال عهدُه بالزّمن الأوّل،

---

[1] النّفح، 7: 186.
[2] هو أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، شاعر ألمرية الكبير.
[3] رسالة ابن خاتمة في النفح، 7: 155 ولسان الدين، حياته وتراثه الفكري: 338.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

و"هل عند رسمٍ دارس من مُعوّل"[1]؟، وحيّا الله ندباً إلى زيارتي نَدَبَك، وبآدابه الحكيمة أدّبك...»[2].

في هذه الرّسالة نلحظ تنويعا في الجمل، بين خبريّة وإنشائية، والتزام السّجع، كما نلاحظ الجمع بين شعره ونثره، مع الاستشهاد ببعض أشعار الآخرين، والاقتباس من القرآن الكريم.

3. رسالة إلى ابن نفيس:

كما بعث لسان الدّين بن الخطيب رسالة إلى أبي عبد الله بن نفيس، صحبة ثمن مسكن اشتراه منه، يقول فيها:

«سيّدي، أبقى الله شَرَفَكَ تشهد به الطّباع، إذا بعدت المعاهد المقدّسة والرّباع وتعترف به الأبصار والأسماع، وإن جحدت عارَضَها الإجماع، بأيّ لسان أُثني؟ أم أيّ الأفنان أهصُر وأجني؟ أم أيّ المقاصد الكريمة أعني؟ أمطيت جوادك المبارك، وأسكنت دارك، وأوسعت مطلبي اصطبارك، وهضمت حقّك وبوّأت جوارك، ووصلت للغرباء إيثارك، أشهد بأنّك الكريم ابن الكريم، لا أقف في تعدادها عند حدّ، إلى خير جد، فإن أعان الدّهر على مجازاة، وإن ترقّع كرمك عن مُوازاة، فحاجة نفسٍ قضيت، وأحكام آمال أمضيت، وإن اتّصلَ العجز فعين على القذى أغضيت، ومَنَاصل عزم ما انتضيت، وعلى كلٍّ فالثّناء ذائع والحمد شائع، واللّسان والحمد لله طائع، والله مشترٍ ما أنت بائع، وقد وجّهت من يحاول لسيّدي ثمن ما اكتسبه مجده، وسَفر عنه حمده، والعقيدة بعد التّراضي، وكمال التّقاضي، وحميد الصبر وسعة التّغاضي، وكونه الخصم والقاضي، أنّه هبة سوَّغها إنعامه، وأكلة ها هنا مِطْعَامه، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره، ويتولّى شكره، ويُنْمِيَ ماله، ويرفع قدره، والولد جاره الغريب الّذي برز إلى مقارعة الأيّام عن خبرة قاصرة، وتجربة غير منجدة على الدّهر وناصرة، قد جعلته وديعة في كرم جواره، ووضعته في حِجْرِ إيثاره، فإن زاغ فيَدُه العليا في تبصيره، ومؤاخذته بتقصيره، ومن نَبّه مثله نام، ومن استنام إليه بمهمّةٍ أكرم بمن إليه

---

[1] هذا عجز بيت من معلّقة امرئ القيس: إن شفائي عبرة مهراقة وهَل عند رسم دارسٍ من مُعَوّل
- ينظر : ديوان امرئ القيس، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5 :9.

[2] النفح، 7: 156، ولسان الدين حياته وتراثه الفكري: 340.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

استنام، وإن تشوّف سيّدي لحال محبّه فمطلق للدّنيا من عقال، ورافض أثقال، ومؤمّل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال»[1].

هذه الرّسالة كتبها ابن الخطيب خلال إقامته في سلا، وهي إقامة دامت عامين كاملين، نتبين منها أنّه كان يحيا حياة هادئة وثابتة، ويدلّ على ذلك شراؤه لمنزل ابن النّفيس، وصحبة ثمن المسكن بعث برسالته هاته الّتي يعرب فيها عن محبّته لابن النّفيس، وأنّ لسانه عاجز عن مدح شخصه و شكره على صنيعه[2].

4.رسالة إلى ابن رضوان:

كما خاطب ابن رضوان برسالة، جاء فيها:

مرضت فأيّامي لديك مريضة ❁ وبُروؤُكَ مقرونٌ ببرء اعتلالها

فلا راعَ تلك الذّات للضرّ رائع ❁ ولا وسمت بالسّقم غرّ خلالها

«وردت عليّ من فئتي الّتي إليها في مَعرك الدّهر أتحيّز، وبفضل فضلها في الأقدار المشتركة أتميّز، سَحَاءة سرّت وساءت، وبلغت من القصدين ما شاءت، أطلع بها سيّدي صنيعة ودّه من شكواه على كلّ عابث في السّويداء، مُوجب اقتحام البيداء، مُضرم نار الشّفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل، ولا من إفصاح لسانه إلاّ الأنين والأليل، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل، فلا تسأل عن ضنين تطرّقت اليد إلى رأس ماله، أو عابد نُوزع متقبل أعماله، أو آمل ضُويق في فذلكة آماله، لكنّني رجّحت دليل المفهوم على دليل المنطوق، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق،ورأيت الخطّ يبهر والحمد للّه تعالى ويروق، واللّفظ الحسن تُومِضُ في حبره للمعنى الأصيل بُروق، فقلت: ارتفع الوَصَب، وردّ من الصّحة المغتصَب، وآلة الحسّ والحركة هي القَصَب، وإذا أشرق سراجُ الإدراك دلّ على سلامة سَليطه، والرّوح خليط البدن والمرء بخليطه، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلاّ الشّرح، ففيه يسكن الظّمأ البرح، وعذراً عن التّكليف فهو محلّ الاستقصاء والاستفسار، والإطناب والإكثار، وزنْدُ القلق في مثلها أورى، والشّفيق بسوء الظّنّ مُغرى، وسيّدي هو العمدة الّتي سلمت

---

[1] النفح، 7: 165.

[2] لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري: 80.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

لي الأيّام فيها، وقالت: حسب آمالك ويكفيها، فكيف لا أُشفق، ومن أنفق من عينه فأنا من عيني لا أُنفق، والله لا يحبط سعيي في سؤالك عصمتها ولا يخفق، ويرشد إلى شكره على ما وهب منها ويوفق، والسّلام الكريم على سيّدنا البرّ الوصول، الّذي زكت منه الفروع لما طابت الأصول، وخلص من ودّه لابن الخطيب المحصول، ورحمة الله تعالى وبركاته»[1].

5. رسائل إلى ابن خلدون:

وأمّا رسائله إلى صديقه ابن خلدون فكثيرة، منها رسالة طويلة في الشّوق يقول فيها بعد استهلالها بقصيدة من اثني عشر بيتاً:

« أمّا الشّوق فحدّث عن البحر ولا حرج، وأمّا الصّبرُ فَسَلْ به أيّةَ درج، بعد أن تجاوز اللّوى والمنعرج،لكن الشدة تعشقُ الفرج، والمؤمن يَنشَق من رَوْح الله الأرج، وأنّى بالصّبر على إبَر الدَّبْر، لا بل الضّرب الهَبْر، ومُطاولة اليوم والشّهر، حتّى حَكَم القهر؟ وهل للعين أن تَسلُوَ سُلُوَّ المقصِّر، عن إنسانها المُبصر، أو تذهَلَ ذهول الزّاهد، عن سرّها الرّائي والمشاهد؟ وفي الجسد مُضْغَةٌ يصلح إذا صلحت، فكيف حالُه إن رَحَلت عنه وإن نزحتْ؟ »[2] .

هذه الرسالة كتبها يتشوق إلى أيامه، بعد أن بعدت بينهما الدار، صوّر فيها مشاعره وأحاسيسه.

ويترك نفسه على سجيتها في بثّ آهاته وزفراته وحنينه بعبارات تفيض رقّة ، ومليئة بمشاعر الإخوة فيقول :

« فلولا عسى الرّجاء ولعلّه، لا بل شفاعة المحل الذي حلّه، لمزجْتُ الحنين بالعتب، وثبتت كتائبه كمُناء في شعاب الكتب، تهزّ من الألفات رماحا خُزْرَ الأسنّة ...» [3]

وبعد أن شعر باستنفاد تصوير ما بداخله، عمد إلى تصوير الأثر الكبير الذي تركه ابن خلدون على الطيور والرّياض:

---

[1] النّفح، 7: 166.
[2] المصدر نفسه، 8: 96.
[3] المصدر السابق، 8: 97.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

« وأهلا بروضٍ أظلّت أشتات معارفك بانَتَه، فحمائمه بعدك تندب، فيساعدها الجُندُب، ونواسمه ترقُّ فتتغاشى، وعشيّاته تتخافت وتتلاشى، ومُزْنُه باكٍ ودَوْحُه في ارتباك...»[1]

لكنه لا يبرح فيعود إلى بث أشواقه ولواعجه ، وتمنى على صاحبه أن يكتب له إطفاءً لنار الجوى فيقول:

« إيه شقة النفس، كيف حال تلك الشمائل ، المزهرة الخمائل، والشِّيَم الهامية الدّيم، هل يمرُّ ببالها من راعت بالبُعد باله ، وأخمدت بعاصف البين دُباله، أو ترثي لشؤون شأنها سَكَبٌ لا يفْتُر، وشوق يبتُّ حبال الشوق ويبتر، وضنًى تقصر عن حلله صنعاء وتَسْتُر...»[2]

وهذه رسالة أخرى من ابن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون، يقول فيها:

« يا سيّدي إجلالاً واعتدادا، وأخي ودّا واعتقادا، ومحلّ ولدي[3] شفقة سكنت منّي فؤاداً، طال عليّ انقطاع أنبائك، واختفاء أخبارك، فرجوت أن تبلغ النّية هذا المكتوب إليك، وتخترق الموانع دونك، وإن كنت في مبائتك كالعاطش الذي لا يروى، والآكل الذي لا يشبع، شأن من تجاوز الحدود الطّبيعيّة، والعوائد المألوفة، فأنا الآن، بعد انتهاء التّحيّة المطلولة الرّوض بماء الدّموع، وتقرير الشّوق اللّزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال أتاحه القرب قبل الفوت من الله، ميسّر العسير، ومقرّب البعيد، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد النّاس، محالاً في مجال الخلوص لك، وأشدّهم حرصاً على اتّصال سعادتك».

ثمّ يخبره عن أحوال مملكة غرناطة، وعن الفتوحات السّلطانيّة كافتتاح حصن آشر، ومدينة جيّان فيقول:

« ... وفيما يرجع إلى الوطن، فأحلام النّائم خصبًا، وهدنة وظهوراً على العدوّ، وحسبك بافتتاح حصن آشر، وبرغة، القاطعة بين بلاد الإسلام ووبذة، والغارين وبيغه وحصن السّهلة في عام، ثمّ دخول بلد أطريرة بنت إشبيليّة عنوة، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السّبي، ثمّ فتح دار الملك ولدة قرطبة، مدينة جيّان، عنوة في اليوم الغرّ المحجل، وقتل المقاتلة، وسبي الذّرية، وتعفية

---

[1] المصدر نفسه، 8: 98.

[2] المصدر نفسه، 8: 99.

[3] تجدر الإشارة إلى أنّ ابن الخطيب كان يكبر ابن خلدون بنحو عشرين عاماً، ولهذا كان يخاطبه في رسائله بألقاب البنوّة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الآثار، حتّى لا يلمّ بها العمران، ثمّ افتتاح مدينة ابَّدة، الّتي تلّف جيّان في ملاءتها، دار التجر والرّفاهية، والبنى الحافلة، والنّعم الثّرة، نسأل الله، جلّ وعلا، أن يصل عوائد نصره، ولا يقطع عنّا سبب رحمته، وأن ينفع بما أعان عليه من السّعي في ذلك والإعانة عليه ».

ثمّ ينتقل إلى الحديث عن أحواله وتآليفه، مشيراً بوضوح إلى سبب تأليف كتاب "المحبّة" أو "روضة التّعريف بالحُبِّ الشّريف"؛ فيقول:

« وأمّا ما يرجع إلى ما يتشوّف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت، فصدرت تقاييد وتصانيف يقال فيها، بعدما أعملته تلك السّيادة من الانصراف، يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم. منها أنّ كتاباً رفع إلى السّلطان في المحبّة من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة، أشار الأصحاب بمعارضته، فعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبّة الله، فجاء كتاباً ادّعى الأصحاب غرابته، وقد وجّه إلى المشرق في صحبة كتاب "تاريخ غرناطة"وغيره من تآليفي ...».

ويختم رسالته، مُعرباً عن مودّته وشوقه؛ قائلاً:

« والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السّيادة والبنوة، إذ لا يتعذّر وجود قافل من حجّ، أو لاحق بتلمسان، يبعثها السيّد الشريف منها، فالنّفس شديدة التّعطّش، والقلوب قد بلغت، من الشّوق والاستطلاع، الحناجر، والله أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه، ويلبسك العافية، ويخلّصك وإيّاي من الورطة، ويحملنا أجمعين على الجادة، ويختم لنا بالسّعادة، والسّلام الكريم عوداً على بدء، ورحمة الله تعالى وبركاته، من المحبّ المتشوّق، الذّاكر الدّاعي، ابن الخطيب، في الثّاني من جمادى الأوّلى من عام تسعة وستّين وسبعمائة[1]».

وتعدّ إخوانياته – لاسيما التي كتبها إلى ابن خلدون – من الصور الأدبية الرفيعة والنماذج الرائعة، التي تعبر عن صدق العاطفة، وعفوية التعبير؛ كما أنها تبيّن تخلي ابن الخطيب عن السجع مجاراة لابن خلدون في صنعته في الكتابة .

وأثبت محمد مسعود جبران أن ابن الخطيب كان سابقا لابن خلدون في كتابة النثر المطلق ، والذي آثر الابتعاد عن السجع.[2]

---

[1] لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري: 345.
[2] فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ،2: 166.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الفصل الثالث

خطبه
ووصيّته ومناظرته

المبحث الاول: خطب ابن الخطيب

المبحث الثاني: وصيته لابنائه

المبحث الثالث: مناظرته.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

تعريف الخطابة:

لغة:

الخُطْبَةُ: هي بضم الخاء، وهي ما يُقال على المنبر، يُقال: خَطَبَ على المنبر خُطْبَة - بضم الخاء- وخَطَابة، وأما خِطْبَة- بكسر الخاء- فهي طلب نكاح المرأة.

جاء في تهذيب اللغة: *"والخطبة مصدر الخطيب، وهو يخطب المرأة ويخطِبُها خِطبة*...، وهو أن الخُطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر، والعرب تقول: فلانٌ خِطْبُ فلانة، إذا كان يخطبها"[1].

وفي القاموس: "... وخَطَبَ الخاطب على المِنْبَر خَطابة بالفتح، وخُطبة بالضم، وذلك الكلام خُطبة أيضًا، أو هي الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه، ورجل خَطِيبٌ حسن الخُطبة بالضم"[2] وفي مختار الصحاح: "خاطَبَه بالسلام مُخَاطَبة وخِطَابا، وخطب على المنبر خُطْبَة- بضم الخاء- وخَطَابة، وخَطَب المرأة في النكاح خِطْبَة- بكسر الخاء- يخْطُبُ بضم الخاء فيهما، واختَطَبَ أيضًا فيهما، وخَطُبَ من باب ظَرُفَ صار خطيبًا"[3].

يقال خاطبه يُخاطبه خِطاباً، والخطبة: الكلام المخطوب به[4].

---

[1] تهذيب اللغة، الأزهري، مادة خطب.
[2] القاموس المحيط، مادة خطب.
[3] مختار الصحاح، مادة خطب.
[4] معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة خطب.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

اصطلاحا:

إنها قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة، من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم[1] وعرَّف بعض المعاصرين الخطابة: بأنها فنّ من فنون الكلام، يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معا.[2]

الخطابة هي الحديث المنطوق تمييزاً لها عن الحديث المكتوب[3]، وهي مَلَكَة لم يؤتها كثير من النّاس، وقد ذكر العلماء عدّة صفات تتوفّر في الخطيب النّاجح، منها رباطة الجأش، وسرعة البديهة، والتّذكر، والثّقافة، وقوّة الاحتجاج، وجهارة الصّوت، والسّلامة من عيوب النّطق، وحسن استخدام النّبرات الصّوتيّة، وإجادة الإشارة اليد...الخ.

والخطبة فنّ نثريّ يُلقيه الخطيب على جمهوره من النّاس؛ وتتكوّن من: المقدّمة، والعرض، والخاتمة، ويشترط في كلّ منها شروط.

فمن شروط المقدّمة أن لا تبتعد عن الموضوع، وأن تكون ممهّدة له.

ومن شروط العرض أن يكون متماسكاً، وواضحاً، ومغرياً، وصادقاً؛ ولابدّ من أن تحدث الخاتمة من الأثر ما يرجوه الخطيب من موضوع خطبته، وقد تكون تلخيصا للعرض، وتوكيداً له.

والخطب بحسب موضوعاتها أنواع منها الخطب السّياسيّة، والخطب الدّينيّة.

وللسان الدّين ابن الخطيب ثلاث خطب سياسيّة:

1. خطبة في الاستنجاد والحضِّ على الجهاد، يقول فيها:

«أيّها النّاس، رحمكم الله، إخوانكم المسلمون قد دهم العدوّ ساحتهم، ورام الكفر استباحتهم، وزحفت أحزاب الطّواغيت عليهم، ومدّ الصّليب ذراعه إليهم،

---

[1] التعريفات للجرجاني: 99.
[2] ينظر الخطابة في الإسلام، د.مصلح سيد بيومي: 11، فن الخطابة، الشيخ علي محفوظ:13-14.
[3] الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق: 438.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأيديكم بعزّة الله أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البرّ والتّقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل لرّشد قد وضح فلتُبصروه؛ الجهاد، الجهاد، فقد تعين، الجار الجار، فقد قرّر الشّرع حقّه وبيّن، الله الله في الإسلام، الله الله في أمّة محمّد عليه السّلام، الله الله في المساجد المعمورة، بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، فقد استغاث بكم الدّين فأغيثوه، قد تأكّد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا أخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله تعالى عند الشّدائد، جدّدوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميلَ العوائد، صِلُوا رحم الكلمة، وآسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطّوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، ألسنة الآيات تناديكم، وسنّة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ) [1] وممّا صحّ عنه –صلّى الله عليه وسلّم قوله: (من اغبرّت قَدَماه فِي سَبِيل الله حَرَّمَهُما الله على النَّار)، (لا يَجْتَمعُ غُبَارٌ في سَبِيل الله ودُخانُ جَهنَّم)، (مَنْ جَهَّزَ غَازِياً في سَبِيل الله فَقَدْ غَزَا).[2]

أدْركوا رَمَق الدّين قبل أن يفوت، بادروا عليلَ الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يومَ يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حقّ جِهاده:

مَاذا يَكُونُ جَوَابُكُمْ لِنَبِيِّكُمْ ❁ وطَرِيقُ هَذا العُذْرِ غيْرُ مُمَهَّدِ

إنْ قَالَ: لِمْ فَرَّطْتُمُ فِي أُمَّتِي ❁ وتَرَكْتُمُوهُم للعدوِّ المُعْتَدي؟

تا الله لَوْ أنَّ العُقُوبَة لَم تُخَفْ ❁ لَكَفَى الحَيَا من وجه ذاكَ السَّيِّدِ

اللّهم اعطف علينا قلوب العباد، اللّهم بُثَّ لنا الحميّة في البلاد، اللّهم دافعْ عن الحريم والضّعيف والأولاد، اللّهم انصرنا على أعدائنا، بأحبابك وأوليائك، يا خير النّاصرين، اللّهم أفرغ علينا صبراً وثبّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً»[3].

---

[1] سورة الصّف، الآية: 10.

[2] ينظر سنن النسائي، النسائي: 4324، 4315، 4389.

[3] النّفح، 7: 273 الأزهار، 1: 64 لسان الدين حياته وتراثه الفكري: 188.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

لقد توجه ابن الخطيب بندائه هذا إلى أهل العدوة وملوكهم من بني مرين، يطلب منهم مساعدة إخوانهم في الأندلس، ويستنفرهم إلى الجهاد، ويذكرهم بفضيلة الجهاد، وما أعده الله سبحانه وتعالى للمجاهدين، ويقتبس آيات قرآنية وأحاديث نبويّة تبيّن أهميّة الجهاد في سبيل الله، ويستعين كذلك بأبيات شعرية جهادية ، يثير بها العواطف ويشحذ الهمم؛ ثم يختم الخطبة بدعاء خير النّاصرين لنصرة المسلمين على القوم الكافرين.

2. خطبة أنشأها ابن الخطيب على لسان الغني بالله في شهر رمضان سنة 767هـ، يحثّ على الجهاد في سبيل الله يقول فيها:

« فالله الله في الهمم فقد خمدت ريحها، والله الله في العقائد فقد خبت مصابيحها، والله الله في الرّجولية فقد فلّ حدّها، والله الله في الغيرة فقد تعسّر جدّها، والله الله في الدّين فقد طمع العدوّ في تحويله، والله الله في الحريم فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميله، والله الله في الملّة، الّتي يريد إطفاء نورها وسناها، وقد كمل فضلُها وتناهى، والله الله في الدّين الكريم، والله الله في القرآن العظيم، والله الله في الأقارب والجيران، والله الله في الطّارف

والتالد، والله الله في الوطن الّذي توارثه الولد عن الوالد، اليوم تستأسد النّفوس المهينة، اليوم يستنزل الصّبر والسّكينة، اليوم تحتاج الهمم لكي ترعى هذه النّفوس الكريمة الدّمم، اليوم يسلك سبيل العزم والحزم والشدّة والشّمم، اليوم يرجع إلى الله تعالى المصرّون، اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترّون قبل أن يتفاقم الهول، ويحقّ القول، ويسدّ الباب، ويحيق العذاب، ويسترق الكفر الرّقاب، فالنّساء تقي بأنفسهن أولادهن الصّغار، والطّيور ترفرف لتحمي الأوكار، إذا أحسّت العبث بأفراخها والإضرار، تمرّ الأيّام عليكم مرّ السّحاب، وذهابُ اللّيالي لكم ذهاب، فلا خبر يفضي إلى العين، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين، ولا كدّ إلاّ لزينة يُحلّى بها نحرٌ وجيد، ولا سعي إلاّ متاع لا يغني في الشّدائد ولا يفيد، وبالأمس نُدبْتُم إلى التماس رُحمى مسخِّرِ السّحاب، واستقالة كاشف العذاب، وسؤال مرسل الدّيمة، ومحيي البشر والبهيمة، وقد أمسكت عليكم رحمة السّماء، واغبرّت جوانبكم المخضرّة احتياجا إلى بلالة الماء (وَ في السَّماءِ رِزْقُكُم ومَا تُوعَدُون)[1]، وإليها الأكفّ تمدّون، وأبوابها بالدّعاء تقصدون، فلم يُصْحِرِ منكم عدد معتبر، ولا ظهر للإنابة ولا الصّدقة خبر، وتتوقون من إعادة الرّغبة إلى الولي الحميد، والغني

[1] سورة الذاريات، الآية: 22.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الّذي (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُم ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[1]، وأيم الله لو كان لهواً لارتقبت السّاعات، وضاقت المتّسعات، وتزاحمت على أنديته الجماعات، أتعزّزاً على الله وهو القويّ العزيز؟ أتلبيساً على الله وهو الّذي يميّز الخبيث من الطيّب والشّبه من الإبريز؟ أمُنَابذة والنّواصي في يديه؟ أغروراً بالأمل والرّجوع بعدُ إليه؟ من يبدأ الخلق ثمّ يعيده؟ من ينزل الرّزق ويفيده؟ من يُرجع إليه في الملمّات؟ من يُرجّى في الشّدائد والأزمات؟»[2].

وهو يحثّ في هذه الخطبة الشّعب الغرناطي على الاتّحاد والجهاد في سبيل الله، ويحذّرهم من الرّكون إلى الغفلة والتّخاذل، كلّ هذا بأسلوب يتميّز بالسّهولة والوضوح والإيجاز؛ كما يتخذ من أسلوب التوكيد وسيلة لزيادة التأثير، لا سيما اقترانه بعبارات الرجاء والألم والمرارة.

3. خطاب ابن الخطيب [3] إلى قبر أبي الحسن المريني، والد أبي سالم:

« السّلام عليك ثمّ السّلام، أيّها المولى الهمام، الّذي عرف فضله الإسلام، وأوجبت حقّه العلماء الأعلام، وخفقت بعزّ نصره الأعلام، وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السّيوف والأقلام، السّلام عليك أيّها المولى الّذي قسم زمانه بين حكم فصل، وإمضاء نصل، وإحراز خصل، وعبادة قامة من اليقين على أصل، السّلام عليك يا مقرّر الصّدقات الجاريّة، ومشبع البطون الجائعة، وكاسي الظّهور العارية، وقادح زناد العزائم الوارية، ومكتب الكتائب الغازيّة، في سبيل الله و السّرايات السّاريّة، السّلام عليك يا حجّة الصّبر والتّسليم، وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السّليم، ومفوّض الأمر في الشّدائد إلى السّميع العليم، ومُعمل البنان الطّاهر في اكتتاب الذّكر الحكيم كرّم الله تعالى تربتك وقدّسها، وطيّب روحك الزّكيّة وآنسها، فلقد كنت للدّهر جمالاً، وللإسلام ثمالاً، وللمستجير مجبراً، وللمظلوم وليّاً ونصيراً، لقد كنت للمحارب صدراً، وفي المواكب بدراً، وللمواهب بحراً، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلا وسترا، لقد فرغت أعلام عزّك الثّنايا، وأجزلت همّتك لملوك الأرض الهدايا، كأنّك لم تعرض الجنود، ولم تنشر البنود،

---

1) سورة إبراهيم، الآية: 19.

2) النفح، 9: 221، لسان الدين حياته وتراثه الفكري: 189.

3) قالها عند زيارته لمدينة الشّالة التّاريخيّة، وهو يشير إلى زيارتها بقوله: «ثمّ كان الارتحال إلى التّربة المولومة المحترمة بشالة، فألقيت بها البرك...»؛ والتّربة الّتي يشير إليها ابن الخطيب هنا، هي قبر أبي الحسن المريني.

– لسان الدّين حياته وتراثه الفكري: 68.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ولم تبسط العدل المحدود، ولم توجد الجود، ولم تزيّن الرّكّع السّجود، فتوسّدت الثّرى، وأطلّت الكرى، وشربت الكأس الّتي يشربها الورى، وأصبحت ضارع الخدّ، كليل الحدّ، سالكا سنن الأب والجدّ، لم تجد بعد انصرام أجلك، إلاّ صالح عملك، ولا صحبت لقبرك، إلاّ رابح تجرك، وما أسلفت من رضاك وصبرك، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك، ويجود بسحاب الرّحمة ترابك، وينفعك بصدق اليقين، ويجعلك من الأئمّة المتّقين، ويعلي درجتك في علّيين، ويجعلك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين.

وَلْيَهْنِك أن صيَّر الله تعالى ملكك من بعدك، إلى نيّر سعدك، وبارق رَعدك، ومنجز وعدك، أرْضَى ولدك، وريحانة خَلَدك، وشقّة نفسك، والسَّرْحة المباركة من غرسك، ونور شمسك، وموصل البرّ إلى رمسك، فقد ظهر عليه أثر دعواتك في خلواتك وأعقاب صلواتك، فكلمتك والمنّة للّه تعالى باقية، وحسنتك إلى محلّ القبول راقية، يرعى بك الوسيلة، ويتمّم مقاصدك الجميلة، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلّده، وعمر بتقواه يومه وغده، وأبعد في السّعد أَمَدَه، وأطلق بالخير يده، وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدَدَه، وإنّني أيّها المولى الكريم، البرّ الرّحيم، لما اشتراني، وراشني وبراني، وتعبدني بإحسانه، واستعمل في استخلاصي خطّ بنانه، ووصيّة لسانه، لم أجد مكافأة إلاّ التّقرب إليك وإليه برثائك، وإغراء لساني بتخليد عليائك، وتعفير الوجنة في حرمك، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك، ففتحت الباب في هذا الغرض، إلى القيام بحقّك المفترض، الّذي لولاه لاتّصلت الغفلة عن آدائه وتمادت، فما يبست الألسن ولا كانت، متحيّزاً بالسّبق، إلى أداء هذا الحقّ، بادئاً بزيارة قبرك الّذي هو رحلة الغرب ما نويته من رحلة الشّرق، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان، وقد جمع بين الشّكر والتّنويه والإحسان، والله سبحانه يجعله عملاً مقبولاً، ويبلغ فيه من القبول مأمولاً، ويتغمّد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصّيّبة، والتّحيّات الطّيّبة، فنعم الملوك الكبار، والخلفاء الأبرار، والأئمّة الأخيار، الّذين كرمت منهم السِّيَرُ وحَسُنَتِ الأخبار، وسعد بعزماتهم الجهادية المؤمنون وشقي الكفّار، وصلوات الله تعالى عَوداً وبدءاً على الرّسول الّذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار، وعلى آله وأصحابه الّذين هم السّادة الأبرار، وسلّم تسليماً»[1].

لقد عدّ ابن الخطيب خصال السّلطان أبي الحسن من كرم وجود وصبر، وأنه كان يجير المستجير، وينصر المظلوم، ثمّ يشير إلى أنّ السّلطان بعد انصرام أجله، لم يجد إلاّ صالح أعماله، وذرّيته الصّالحة، وولده البارّ الّذي خلفه، فيتضرّع

[1] النّفح، 8: 110 ــلسان الدّين حياته، وتراثه الفكري: 70.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

إلى الله أن يعين الولد على ما قلّده به والده، وأن يكرم الله عز و جل تربة الوالد، ويطيّب روحه الزّكيّة.

ومما يسترعي الانتباه أن ما وصل إلينا من خطبه، لم تستفتح بالبسملة ولا بالحمدلة، وكان يعمد إلى الإثارة العاطفية ، فكان التركيز على ما يشحذ الهمم .

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

1. وصيته لأبنائه الثلاثة عبد الله ومحمد وعلي.

- **تعريف الوصية وأنواعها.**

1. تعريف الوصية:

لغة :

وصى: أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيتُ الشيءَ: وصلته، ويقال: وطِئنا أرضا واصيةٌ، أي إنّ نبتها متصل قد امتلأت منه.

والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يوصى أي يوصَل يقال: وصيتُه توصية.

وأوصيته إيصال.[1]

وأوصى: أوصيت له بشيء. وأوصيت إليه، إذا جعلته وصِيَّك، والاسم الوصاية والوَصاية.

وأوصَيتُه،[2] ووصيتُه أيضا توصية.

وأوصى الرجل ووصاه: عهد إليه، وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضا[3]

اصطلاحا:

إذا الوصية من الوصل والاتصال، فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال.

فهي نقل أمين للتجارب السابقة، والخبرات المكتسبة والمعارف، يقدّمها الموصي من أجل تحقيق الفائدة للمتلقين.

أنواع الوصايا:

---

[1] معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة وصى.
[2] تاج اللغة وصحاح العربية، الفارابي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1999 م، مادة وصى.
[3] لسان العرب، ابن منظور، مادة وصى.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

1. **الوصايا الدينية:** الوصايا الدينية تحث الناس على امتثال أوامر الله عز وجل، واجتناب نواهيه، وضرورة العمل الصالح، وحفظ القرآن، والحفاظ على الصلاة، والصيام وإقامة شعائر الإسلام.

2. **الوصايا الاجتماعية:** الوصايا الاجتماعية تنظم شؤون الحياة، وتوجه السلوك نحو العيش النافع، وتبين كيفية التعامل مع الأصدقاء والأعداء.

3. **الوصايا السياسية:** الوصايا السياسية جانب من جوانب الآداب السلطانية، تنظم شؤون الدولة، وتقدم نصائح في كيفية إدارة الحكم.

وقد كتب ابن الخطيب لأولاده[1] وصيّة جامعة نافعة، استهلّها بقوله:

« الحمد لله الّذي لا يروعه الحِمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، مُلهم الهدى الّذي تطمئنّ به القلوب، ومُوضِحُ السّبيل المطلوب، وجاعل النّصيحة الصّريحة في قسم الوجوب، لا سيما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يعْقُوب الموت)[2]،(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ)[3].

والصّلاة والسّلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله، أكرم من زُرَّتْ على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خُلعت عليه حلل المهابة والعصمة، فلا تقتحمه العيون ولا تَصِمُه العيوب، والرّضا عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل إلى المرغوب، والعزّ والأمن من اللّغوب.

وبعدُ، فإنّي لما علاني المشيب بقمّته، وقادني الكبر في رُمّتِه، وادّكرت بعد أُمّته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكّد وجوب نصحي لمن لزمني رَعْيُه، وتعلّق بعيني سَعْيُه، وأمّلت أن تتعدّى إليّ ثمرة استقامته وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العقور في الطّريق الّتي اقتضت عثاري، إن سلك وعسى أن لا يكون ذلك على آثاري، فقلت أخاطب الثّلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضّراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجَمْع تفريقهم، وأن يمنّ عليَّ منهم بحسن الخلف، والتّلافي من قبل

---

[1] هم عبد الله ومحمد وعلي، ولقد أخبرنا ابن الخطيب في "نفاضة الجراب" أنّه لمّا توفّيت زوجته أثناء مقامه بسلا تركت له عدداً من الأولاد الصّغار، ذكوراً وإناثاً.
- ينظر لسان الدين حياته وتراثه الفكري: 192- 193.

[2] سورة البقرة، الآية: 133.

[3] سورة البقرة، الآية: 132.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

التّلف، وأن يرزق خلفهم التمسّك بهدي السّلف ، فهو وليّ ذلك، والهادي إلى خير المسالك.

اعلموا، هداكم الله تعالى، الّذي بأنواره تهتدي الضُّلال، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرّأت من يمينها الشّمال، أنّي مُودعكم وإن سالمني الرّدى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا ممّا بدا، فكيف وأدوات السّفر تجمع، ومنادي الرّحيل يسمع، ولا أقلّ للحبيب المودّع من وصيّة محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة[1] تعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب من بعدي، وتوضح لكم من الشّفقة والحنوّ قصدي، حسبما تضمّن وعدُ الله من قبلِ وعدي، فهي أرَبُكم الّذي لا يتغيّر وقفه، و ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه، وكأنّي بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصّاب من العسل، ونصول الشّيب تروع بأسل، لا بل السّام من كل حدب قد نَسَل، والمعاد اللّحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر مجر، وغداً شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنّفوس عن المألوفات صاغرة، والدّنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يُتَّعَظْ به في أمر، وقال: بيدي لا بيد عمرو، فاقتنوها من وصيّة، ومَرَام في النّصح قصيَّة، وخصُّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، وحسبي وحسبكم الله الّذي لم يخلق الخلق هَمَلاً، ولكن ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً، ولا رضي الدّنيا منزلاً، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلاً؛ ولتلقنوا تلقيناً، وتعلموا علماً يقيناً، أنّكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش التّرابَ جنبي، ويسحّ انسكابي، وتهرول عن المصلّى ركابي، أحرص منّي على سعادة إليكم تُجلب، أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتُطلب، حتّى لا يكون في الدّين والدّنيا أورف منكم ظلاً، ولا لأشرف محلاً، ولا أغبط نهلاً، وعلاً، وأقلّ ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتستلمحوا صبح نصحي فقد بان»[2].

لقد استهلّ ابن الخطيب وصيّته بإخبار أبنائه أنّه آسف على ما ضيّع ونادم ومن أجل ذلك وجب عليه نصحهم، لأنّه مودعهم وإن سالمه الرّدى، ومفارقهم وإن طال المدى، وأنّه يجب عليهم اقتناؤها وصيّة لهم، وأن يخصّوا بها أولادهم، إذا عقلوا، ليجدوها زاداً إذا انتقلوا.

ثمّ يوصيهم بما أوصى به لقمان ابنه فيقول:

---

[1] الرّتيمة: خيط يشدّ في الإصبع لتتذكّر به الحاجة.

[2] النفح، 9 : 227 29 ؛ الأزهار، 1: 320- 323.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

« وسأعيد عليكم وصيّة لقمان: أعوذ الله من الشّيطان الرّجيم (وإذْ قَال لُقْمانُ لابْنِهِ وهُو يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِك بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[1]، (يَا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلاةَ، وأمُرْ بالمَعرُوفِ، وانْهَ عَنِ المُنْكرِ، واصْبِرْ عَلَى مَا أصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ، ولاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ولاَ تَمْشِ في الأَرْضِ مَرَحاً إنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنّ أنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ)[2]، وأعيد وصيّة خليل الله وإسرائيله، حكم ما تضمنه حكم تنزيله (يَا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُمْ مُسْلِمُونَ)[3]، والدّين الّذي ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفّاه، وقرّره مصطفاه، من قبل أن يتوفّاه، إذا أعمل فيه انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرّر، ومستمدّ من عقل أو نقل محرّر، والعقل متقدّم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدّم، فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزّه عن الزّمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الّذي لا يُسْأل عن شيء وهم يُسْألون، الحيّ العليم المدبّر القدير (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُو السَّمِيعُ البَصِيرُ)[4]، أرسل الرّسل رحمة لتدعو النّاس إلى النّجاة من الشّقاء، وتوجّه الحجّة في مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيّدة بالمعجزات الّتي لا تتّصف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثمّ ختم ديوانهم بنبيّ ملّتنا المرعيّة الهمل، الشّاهدة على الملل، فتلخّصت الطّاعة، وتعيّنت الإمرة المُطاعة، ولم يبق بعده إلاّ ارتقاب السّاعة، ثمّ إنّ الله تعالى قبضه إذ كان بشرا، وترك دينه يضمّ من الأمّة نشرا، فمن تبعه لحق به، ومن تركه نوط عنه في منسبه، وكانت نجاته على قدر سببه. روي عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: (تَرَكْتُ فِيكُم مَا إنْ تمسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ الله، وسُنَّتِي، فَعَضُّوا عَلَيْهِمَا بالنَّواجِذِ)[5]، فاعملوا يا بني، بوصيّة من ناصح جاهدٍ، ومشفق شفقة والد، واستشعروا، حبّه الّذي توفّرت دواعيه، وَعُوا مَرَاشد هديه فيا فوز واعيه، وصِلُوا السّبب بسببه، وآمنوا بكلّ ما جاء به مجملاً أو مفصّلاً على حسبه، وأوجبوا التجلّة لصحبه الّذين اختارهم الله تعالى لصحبته، واجعلوا محبّتكم إيّاهم من توابع محبّته، واشملوهم بالتّوقير، وفضّلوا منهم أولي الفضل الشّهير، وتبرّؤوا من العصبيّة الّتي لم يدعُكم إليها داع، ولا تَعِ التّشاجرَ بينهم أذنُ واع، فهو عنوان السّداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثمّ اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملّة، وأئمّتها الجلّة، فهم صَقَلة نصولهم، وفروع ناشئة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم، واعلموا أنّني قطعت في البحث زماني، وجعلت النّظر شاني، منذ براني الله تعالى

---

[1] سورة لقمان، الآية: 13.
[2] سورة لقمان، الآية: 17 ـ 19.
[3] سورة البقرة، الآية: 132.
[4] سورة الشورى، الآية: 11.
[5] موطأ مالك،2: 799.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأنشاني، مع نبل يعترف به الشّاني، وإدراك يسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط وَرَق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلّف فطام، ولا مقتحم بحرٍ طام، إلاّ وغايته الّتي يقصدها قد فضلتها الشّريعة وسبقتها، وفَرَعَتْ ثنيّتها وارتقتها، فعليكم بالتزام جادّتها السّابلة، ومصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين (ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين)[1]، وقد علت شرائعه، وراع الشّكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدّنيا عن الدّين، وابذلوا دونه النّفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النّار أبد الآبدين، ولا يضرّ مفقود مع الفوز بالسّعادة والله أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدّنيا أخسّ ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللّهم قد بلّغت فأنت خير الشّاهدين، فاحذروا المَعَاطب الّتي توجب في الشّقاء الخلودَ، وتستدعي شَوْه الوجوه ونضج الجلود، واسنعيذوا برضا الله من سخطه، وارْبَؤُوا بنفوسكم عن غَمْطه[2]، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزّائل ائتلافكم، واقتنعوا منه بما تيسّر، ولا تأسَوْا على ما فات وتعذّر، فإنّما هي دُجُنّة ينسخها الصّباح، وصفقة يتعاقبها الخسار والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنّواجد عليها، وكفكفوا الشّبه أن تدنوا إليها.

واعلموا أنّ الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤهُ عمل، وكلّ ما سوى الرّاعي همل، وما بعد الرّأس في صلاح الجسم أمل، وتمسّكوا بكتاب الله تعالى حفظا وتلاوة، واجْعَلُوا حمله على حمل التّكليف علاوة، وتفكّروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأوّلوه ولا تَغْلُوا فيه، وأشْرِبوا قلوبكم حبَّ مَنْ أُنْزِل على قلبه، وأكثروا من بواعث حبّه، وصونوا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد الّتي ينبني عليها الإسلام حتّى لا ينخرم».

فابن الخطيب يحثّ أبناءه في هذا المقام على الإيمان بالله الواحد والإيمان بكلّ ما جاء به نبيّه، مجملا ومفصّلاً، مبيّناً لهم أنّه قد قطع زمانه في البحث، فلم يجد مسألة أو غاية يقصدها الإنسان إلاّ وقد فصلتها الشّريعة وسبقت إليها، ثمّ هو يشدّد على حثّ أولاده على أداء الصّلاة والتّنويه بفضائلها وإقامة فروضها ونوافلها، فيقول:

«الله الله في الصّلاة ذريعة التجلّة، خاصة الملّة، وحاقنة الدّم، وغنى المستأجر المستخدم، وأمّ العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشّهادة، والنّاهية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشّيطان عرضهما، ووطأ للنّفس

---

[1] سورة آل عمران، الآية: 85.

[2] ربأ بنفسه: ترفّع. وغمطه حقّه غمطاً: جحده.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الأمّارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بلِّ الجوانح ببرود الذّكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن العشرة من الجار، وداعية للمسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السّلامة، والشّاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطّبع إذا شانه طبع، والخير الّذي كلّ ما سواه له تبع، فاصبروا النّفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنيّة، وتؤثروا على العلية الدنيّة، فإنّ أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قورنت بالشّواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الّذي لا يغيّره الغدوّ والأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حقّ من يموت من حقّ الحيّ الّذي لا يموت؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها وأتبعوها النّوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقّت الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وذلك أحرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض، والطّهارة الّتي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطه محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظّفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيّات في كلّ ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسّيف بمراسه.

واعلموا أنّ هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتّى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلاّ من ضبط نفسه بعِقال، واستعاض صدأه بصِقال، وإن تراخى قهقر الباع، وسرقته الطّباع، وكان لما سواها أضيع فشمل الضّياع».

ثمّ يوصيهم بعد ذلك بأداء الزّكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله، ثمّ ينوّه بوجوب الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لهم القدرة عليه، وذلك في قوله:

« والزّكاة أختها الحبيبة ولِدَتها القريبة، مفتاح السّعادة بالعرض الزّائل، وشكران المسؤول على الضّدّ من درجة السّائل، وحقّ الله تعالى في مال من أغناه، لمن أجهده في المعاش وعنّاه، من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه، ولا علّة إلاّ القدر الّذي يخفيه وما لم ينلْه حظّ الله تعالى فلا خير فيه، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستحْيُوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشّيطان كلّما عذل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتّب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدّلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وصيام رمضان عبادة السّرّ المقرّبة إلى الله زُلْفى، الممحوضة لمن يعلم السّرّ وأخفى، مؤكّدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد، وإيثار السّهاد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعيّة، ولواحقه الشرعيّة، فبذلك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقّة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطّباع، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع.

والحجّ –مع الاستطاعة الرّكن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب،" وقد بيّن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قدره فيما فَرَض عن ربّه وسنّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلاّ الجنّة " [1]، ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممّن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مُبدّلين، ولا مُغيّرين، ولا تضيّعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين».

ثمّ يوصي ابن الخطيب أولاده بعد ذلك بتحصيل العلم النّافع؛ وخير العلوم: علوم الشّريعة، وعلوم اللّسان، ثمّ تجويد القرآن، وحفظ الحديث، ثمّ أصول الفقه، والمسائل المنقولة عن العلماء الجلّة؛ ثمّ يحذّرهم من العلوم القديمة، والفنون المهجورة الدّميمة قائلاً:

« واعلموا أنّ بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النّافع، دليلاً بين يدي السّامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللُّباب، والله عزّ وجلّ يقول: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِين يَعْلَمُونَ والّذِينَ لاَ يَعْلَمُون إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الألْبَابِ)[2]، والعلم وسيلة النّفوس الشّريفة، إلى المطالب المنيفة، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة، وخاصّة الملأ الأعلى، وصفة الله في كتبه الّتي تُتلى، والسّبيل في الآخرة إلى السّعادة، وفي الدّنيا إلى النّحلة عادة، والذّخر الّذي قليله يشفع، وكثيره ينفع، لا يغلبه الغاصب، ولايسلبه العدوّ المنهصب، ولايبتزّه الدهر إذا نال، ويستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل، وإن كثرت آماله، وقليل وإن جمّ ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطّى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودَرْسِه، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جَرَّاه، وسهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تعزل، وتُحلّوهم

[1] صحيح البخاري،2: 864.
[2] سورة الزّمر، الآية: 9.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مثابة رفعة لا يُحَطُّ فارعها ولا يُستنزل، واختاروا في العلوم الّتي يتعقّبها الوقت، فلا يناله في غيره المقت. وخير العلوم علوم الشّريعة، وما نجم بمنابتها المريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنّما هي آلات لغير، وأسباب إلى خير منها وخير، فمن كان قابلاً للازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثمّ حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثمّ الشّروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة، المهدي كنوز الكتاب والسنّة، ثمّ المسائل المنقولة عن العلماء الجلّة، والتدرّب في طرق النظر وتصحيح الأدلّة، وهذه هي الغاية القصوى في الملّة؛ ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعد عن الّتي هي أسمى، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرإ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإيّاكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الدّميمة، فأكثرها لا يفيد إلاّ تشكيكاً، ورأياً ركيكاً، ولا يثمر في العاجلة إلاّ اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسيمة الصّغار، وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشّريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجِدال؛ هذا ابن رشد قاضي المصر ومُفتيه، وملتمس الرّشد ومولِيه، عادت عليه بالسّخطة الشّنيعة، وهو إمام الشّريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورّط في ازدحامها؛ ولا تخلطوا حامكم بحامها، إلاّ ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة، وعلاج يرجع على النّفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضَرَمٌ مسجور، وممقوت مهجور.».

ثمّ يخبرهم أنّه يجب عليهم أن يأمروا بالمعروف، وأن ينهوا عن المنكر، وأن يطيعوا وليّ أمرهم، وأن يحذروا الفتنة، وملازمة الصدق، والوفاء بالأمانة، والعهد، ثمّ يخذرهم من ارتكاب الزّنا، وأن يجتنبوا الخمر والرّبا وذلك في قوله:

« وأمُرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً، وانهوا عن المنكر نهياً حَرِيّاً بالاعتدال حقيقاً، واغبطوا من كان من سِنة الغفلة مُفيقاً، واجتنبوا مَا تُنْهَوْنَ عنه حتّى لا تسلكوا منه طريقا؛ وأطيعوا أمر من ولاّه الله تعالى من أموركم أمراً، ولا تقربوا من الفتنة جمراً، ولا تُداخِلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً.

وعليكم بالصّدق فهو شعار المؤمنين، وأهمّ ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر من شيء عُرف به.

وإيّاكم والكذب فهو العورة الّتي لا تُوارى، والسَوْأةُ الّتي لا يُرتاب في عارها ولا يُتمارى، وأقلُّ عقوبات الكذّاب، بين يدي ما أعدّه الله له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحقّ نطق.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الدّيانة كُلوم، ومن الشّريعة التّي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصّيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دَيْن الخيانة، ولا توجدوا للعذر قَبُولاً، ولا تقرُّوا عليه طبعاً مجبولاً (وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً)[1]، ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزْن، ولا تبخسوا النّاس أشياءهم في كيل أو وزن، والله الله أن تعينوا في سفك الدّماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أنّ الإنسان في فُسحة ممتدّة، وسبل الله تعالى غير منسدّة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانِه، ويمس الدّم الحرام بيده أو لسانه، قال الله تعالى في كتابه الّذي هدى به سَنَناً قَويماً، وجلى من الجهل والضّلال ليلاً بهيما (وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)[2].

واجتناب الزّنى وما تعلّق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتدّ في سبيل السّعادة باعه، لو لم تتلقَّ نور الله الّذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشّهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يُزنى بأهله، والله قد أعدّ للزّاني عذاباً وبيلاً، و قال: (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[3].

والخمر أمُّ الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر؛ واللّهو لم يجعلْه الله في الحياة شرطاً، والمحرّم قد أغنى عنه بالحلال الّذي سوّغ وأعطى، وقد تركها في الجاهليّة أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرّة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجساً محرّماً على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السّداد.

ولا تقربوا الرّبا فإنّه من مناهي الدّين، والله تعالى يقول: (وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[4]، وقال: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ)[5] في الكتاب المبين. ولا تأكلوا مال أحد بغير حقّ يبيحه، وانزعوا الطّعم عن ذلك حتّى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل خياره إلاّ للثّقة من خدمه، ولا تلجؤوا إلى المتشابه إلاّ عند عدمه، فهو في السّلوك إلى الله تعالى أصل مشروع، والمحافظ عليه مغبوط».

---

[1] سورة الإسراء، الآية: 34.
[2] سورة النّساء، الآية: 93.
[3] سورة الإسراء، الآية: 32.
[4] سورة البقرة، الآية: 278.
[5] سورة البقرة، الآية: 279.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

كما يطلب منهم أيضا أن يجتنبوا الظّلم، والبخل، وأن يعطفوا على المساكين، (وأن يقتربوا إلى الله) بالصّدقة، ويرعوا حقوق الجار، ويتعاهدوا أولي الأرحام، وأن يحذروا شهادة الزّور، وأن يتضرّعوا إلى الله بالدّعاء قائلاً:

« وإيّاكم والظّلم فالظّالم ممقوت بكلّ لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، (وَالظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَة)[1]، كما ورد في الصّحاح الحسان، والنّميمة فساد وشتات لا يبقي عليه متات، وفي الحديث (لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ[2]). واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإيّاكم والغيبة فبابُ الخير معها مسدود، والبخل فما رئي البخيل وهو مودود، وإيّاكم وما يُعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، وتفقّدوا أنفسكم مع السّاعات، وأفشو السّلام في الطّرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزّمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات، وعوّلوا عليه وحده في الشّدائد، واذكروا المساكين إذا نَصَبتم الموائد، وتقرّبوا إليه باليسير من ماله، واعلموا أنّ الخلق عيال الله وأحبّ الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام، والوشائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزّور فإنّها تقطع الظّهر، وتفسد السّرّ والجهر، والرَشا[3] فإنّها تحطّ الأقدار، وتستدعي المذلّة والصّغار، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر، وصونوا المواعيد من الإخلاف، والأيمان من حِنْثِ الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله تعالى من الازدراء والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العِجاف، ولا تكلفوا بالكَهانة والإرجاف، واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصيّة وابتعاد، واعلموا أنّ الله سبحانه بالمرصاد، وأنّ الخلق بين زرع وحصاد، وأقلّوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذوا القواطع عن السّعادة كما تحذر السّموم، واعلموا أنّ الخير أو الشّرّ في الدّنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصّبر إذاية المؤذين، ولا تعارضوا مقالات الظّالمين، فالله لمن بُغِيَ عليه خير النّاصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيّام كلّما نزلت، ولا تضجّوا للأمراض إذا أعضلت، فكلّ منقرض حقير، وكلّ مُنْقَض وإن طال قصير، وانتظروا الفرج، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج، وأوسعوا بالرّجاء الجوانح، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح، وتضرّعوا إلى الله تعالى بالدّعاء، والجؤوا إليه في البأساء والضرّاء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشّكر الّذي يقيد به الشّارد، ويَعْذُب الوارد، وأسهموا منها للمساكين وافضُلُوا عليهم، وعَيِّنُوا الحظوظ منها لديهم، فمن

---

[1] أخرجه مسلم، 8 : 18 .
[2] القتّات: النّمام.صحيح البخاري،5 : 2250 .
[3] الرَشا: جمع رشوة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الآثار "يا عَائِشَةُ، أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ الله، فَإِنَّها قَلَّما زَالَت عَنْ قَوْمٍ فَعَادَت إِلَيْهِم" [1].
ولا تطغوا في النّعم فتقصروا عن شكرها، وتلقّكم الجهالة بسكرها، وتتوهّموا أنّ سعيكم جلبها، وجِدُّكم حلبها، فالله خيرُ الرّازقين، والعاقبة للمُتّقين، ولا فعل إلاّ لله إذا نظر بعين اليقين. والله الله! لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تُذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كلّ منكم لأخيه، ما يشتدّ به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبرّ، ومراعاة في علانيّة وسرّ، وللإنسان مزيّة لا تُجهل، وحقّ لا يُهمل، وأظهروا التّعاضد والتّناصر، وصِلُوا التّعاهد والتّزاور، تُرغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأودّاء، ولا تتنفسوا في الحظوظ السّخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السّباع على الجيفة، واعلموا أنّ المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النّساء شرُّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظمَ النّساءُ أمراً فاحْقِرُوه».

وممّا ورد في وصيّته، وهو ذو مغزى قوله:

« والله الله لا تنسوا مقارضة سَجْلي، وبروا أهلَ مودّتي من أجلي؛ ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القَلِق المهاد، الّذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العَقَار، فيصبح عرضة للمذلّة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلّب العدوّ على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقاً عن الانتقال، أمام النُّوب الثّقال، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى».

كما حثّهم على الزّهد في مصاحبة أهل الدّنيا فقال:

« وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدّنيا، فخيرها لا يقوم بشرّها، ونفعُها لا يقوم بضرِّها، وأعقاب من تقدّم شاهدة، والتّواريخ لهذه الدّعوى عاضدة، ومن بُلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلّل من المال، وليحذر معاداة الرّجال، ومزلاّت الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السرّ، وسكر الاغترار فإنّه دأب الغِرّ، ولْيَصُنِ الدّيانة، ويؤثر الصّمت ويلازم الأمانة، ويَسِرْ من رضا الله على أوضح الطّرق؛ ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحقّ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النّقصان، والزعازع تسالم اللّدْن اللّطيف من الأغصان[2]، وإيّاكم وطلب الولايات رغبةً واستجلاباً، واستظهاراً على الخطوب وغِلاباً، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختيارا، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلقَّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة،

[1] المعجم الأوسط، الطبراني، 8: 38.
[2] الزّعازع: جمع زعزع، وهي الرّيح الشّديدة الهبوب، واللّدن: الطري اللّيّن.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأسر وإحْنة[1]، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقّع عزل، وإدالة بإزاء بيع جدّ من الدّنيا بهزل، ومزلّة قَدَم، واستتباع ندم، ومآل العمر كلّه موت ومعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممّن نفعه بالتّبصير والتّنبيه، وممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه»[2].

ويختتم ابن الخطيب وصيّته لأولاده بقوله:

« هذه أسعدكم الله وصيّتي الّتي أصدرْتُها، وتجارتي الّتي لربحكم أدرْتُها، فتلقّوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدّنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النّفسية القِيَم، استكثرتم من بواعث النّدم.

ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أنّ تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كلّ حال، فالدّنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء، جعل الله من وراء خطّته النّجاة، ونفّق بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، والسّلام عليكم من حبيبكم المودّع، والله سبحانه يُلئمه حيث شاء من شمل متصدّع، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب، ورحمة الله وبركاته»[3].

فلسان الدين يختم وصيته بالدعاء لبنيه بأن ينير الله بصائرهم، ويجعلهم من الصالحين الذين ينفع الله بهم و بدعائهم أباهم ، ثم يذكّرهم بفوائدها وأهميتها.

لهذا اختار لسان الدين الجملة الفعلية لتؤدي معاني الوصية وتنهض بمضمونها، فقد استخدم أفعالا تراوحت بين الماضي والمضارع والأمر، وهو ما وضع الوصية في جوّ من الحركة والانفعال، ثم ركز على استخدام الجملة الشرطية، وهو اختيار منسجم مع الغرض العام؛ كذلك البنية الفعلية في الوصية تراوحت بين الأمر والنهي، ولم يكتف لسان الدين بهذا التنوع الغني على مستوى الجملة الفعلية بل تعداه إلى استخدام الكلمة وضدها أي إلى تنميق الوصية بالمحسنات البديعية ولا سيما الطباق؛ نجد التكرار فمثلا يكرر استخدام لفظ الجلالة الله، وهو

---

[1] الإحنة: الحقد والضغينة.

[2] وذلك في إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له".
- صحيح مسلم، 3: 1255.

[3] النفح، 9 : 227 237؛ الأزهار، 1: 320 336.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

أمر ينسجم مع هدفه وربط الحياة الدنيا بالآخرة، وهو إذ يكرر ذلك إنما يُلح على هدفه حتى يبلغ به درجة الرسوخ في أذهان أبنائه، ويفلحوا في الدنيا والآخرة.

كما اقتبس لسان الدين نصوصا كثيرة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة؛ وبهذا انتهت الوصيّة الطّويلة في حجمها، الفريدة في حسنها، والبليغة في أسلوبها؛ وهي وصيّة جامعة نافعة، عبّرت عن حبّ صادق أكنّه ابن الخطيب لأولاده، وعن حرص منه شديد، أن يلزموا سمت الاستقامة، فيسعدوا في الدّنيا، وينجوا في الآخرة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- تعريف المناظرة:

1. مناظرة ابن الخطيب: مفاخرة ين مالقة وسلا.

تعريف المناظرة:

لغة:

قال ابن فارس: "النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته ثم يستعار ويتسع فيه" [1].

وقال الراغب: "والمناظرة: المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته والنظر: البحث وهو أعم من القياس لأن كل قياس نظر وليس كل نظر قياساً"[2]
وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: " والمناظرة: أن تناظر أخاك في أمرٍ إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه "[3].

ويقال ناظرت فلاناً إذا صرت له نظيراً في المخاطبة[4].

أما المناظرة اصطلاحاً:

قال الجرجاني والمناوي في تعريفها إنها: " النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب"[5].

وقيل هي: تردد الكلام بين شخصين يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق.[6]

إذا " المناظرة" فن من فنون النّثر الفنّي، يهدف الكاتب من ورائه إلى إظهار البراعة الأسلوبية و المقدرة البيانية.

---

(1) في معجم مقاييس اللغة، 5 : 444 .
(2) في المفردات: 518.
(3) العين، 8: 156.
(4) وينظر تاج العروس1 : 3554، لسان العرب، 5 : 215 (مادة نظر) تهذيب اللغة للأزهري، 14: 371 (مادة نظر)
(5) التعريفات:298، التعاريف للمناوي:678.
(6) ينظر: مناهج الجدل في القرآن، زاهر الألمعي: 24 .

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

هناك من المناظرات ما يكون بين شخصين حول موضوع معيّن، كالمناظرة الّتي قامت بين أبي الوليد إسماعيل الشّقندي وأبي يحي بن المعلّم الطّنجي، فضّل الأوّل فيها الأندلس، وفضّل الثّاني برّ المغرب[1]؛ ومنها ما يأتي على صورة أشبه بالمقالة ويبنى على التّفاخر والمباهاة بشيء ما، كمناظرة ابن برد الأصغر في تفضيل الورد[2]، ومناظرة حبيب الحميري في تفضيل البهار، كذلك مناظرة أخرى لأبي عمر الباجيّ في تقديم البهار، ومناظرة لابن حسداي في تفضيل النّرجس[3]؛ ومن المناظرات ما يأتي على صورة رسالة يدور الحوار فيها بين شيئين أو أكثر، كمناظرة ابن برد الأصغر الموجّهة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامريّ، وفيها يعقد مناظرة بين السّيف والقلم، أو كرسالة أديب الأندلس أبي بحر بن إدريس إلى الأمير عبد الرّحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ، الّتي بناها على مناظرة بين مدن الأندلس.

ومن المناظرات، كذلك، المناظرات العلمية، والفكريّة، والفقهيّة.

[1] الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق: 474.
[2] ينظر رسالة ابن برد في كتاب نهاية الأرب، 11: 196.
[3] تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، إحسان عبّاس: 232.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

1.مناظرة ابن الخطيب :

أمّا مناظرة ابن الخطيب فهي مفاخرة بين مالقة وسلا، حيث يفاضل فيها بين الثّغرين الأندلسي والمغربي إذ يقول:

« سألتني عرّفك الله عوارف السَّعد المقيم، وحَملني وإيّاك على الصّراط المستقيم، المُفاضلة بين مدينتي مالقة وسلا، صان الله من بهما من النَّسم، وحباهما من فضله بأوْفر القَسم، بعد أن رَضِيتَ بحكمي قاضياً، وبفَضلي الخُطَّة سيفاً ماضياً، لاختصاصي بسُكْنى البلدين، وتركْي فيهما الأثر للعَين، على أنّ التّفْضيل إنّما يَقَع بين ما تشابه وتَقارب، أو تشاكل وتناسب، وإلاّ فمتى يقعُ التّفضيل بين النّاس والنِّسْناس، والملك والخنّاس، وقِرْد الجبال، وظبْي الكناس.

مالقة، أرفع قدرا، وأشهرُ ذكراً، وأجلُّ شأناً [وأعَزُّ مَكَاناً] وأكرمُ ناساً، وأبعدُ التماساً، من أن تفاخر أو تُطاول، أو تعارض أو تُصاول، أو تُراجع أو تُعادل، ولكني سأنتهي إلى غرضك، وأُبيّن رُبع مُغترضِك، وأُباين جوْهرك وعَرَضك، فبقول الأمور الّتي تتفاضل بها البلدان، وتتفاخر منها به الإخوان، وتعرفُه حتّى الولائد والولْدان، هي المنَعَة والصّنعة والبُقعة والشَّنْعة، والمساكن والحضارة، والعِمارة والإثارة والنّضارة.

فأمّا المنعة، فلمالقة حَرَسَها الله فضلُ الارتفاع، ومزيّة الامتناع، أمّا مَقَبَّتُها فاقْتَعدت الجَبَل كرسيّاً، ورفعها الله مكاناً عليّاً، بعد أن ضوعفت أسوارها وأقْوارها، وسَما بسَنام الجبل المُبارك منارُها، وقرّت أبراجُها، وصُوعدت أدْراجها، وحُصِّنت أبوابها، وحسُن جنابُها، ودار ببلدها السُّور والجُسور، والخندق المحفور، قلعاتها مداينُ بذاتها، وأبوابها المُغشاة بالصّفايح شاهدةٌ بمهارة بُناتها، وهمم أمرائها ووُلاّتها، كأنّها لَبِسَتِ الصّباح سِرْبالاً، أو غاصتْ في نهر الفلْق بهاءً وجمالاً، أمِنت من جهة البحر الثّقيّة، وأدار بها من جهة البرِّ الحفيرُ والسُّلوقيّةُ، لا تجد العين بها عَوْرَة تُتَّقى، ولا ثَلْماً منه يُرتقى، إلى الرَّبَضَين، اللّذين كلّ واحد منهما مدينةٌ حافلة، وعقيلةٌ في حلى المحَاسن رافلة.»

وسلا، كما علمتَ، سورٌ حقير وثُور، إلى التّنجيد والتّشْييد فقير، إطام خامِلة وللرّوم آملة، وقَصبَتها بالبلد مُتّصلة سُورها مُفرد، لا سُلوقيّة تقيه، وبابُها تقْصد لا ساتر تحميه، والماءُ بها معدوم، وليس له جُبٌّ معلوم، ولا بيرٌ بالعذوبة موسوم، وفي عهد قريب استْبَاحتها الرُّوم في اليَوْم الشّامس، ولم تُرَدَّ يد لامس، من غير مَنْجنيقٍ نُصب، ولا تاج ملك عليه عُصب، قلّة سلاح وعدم فلاح، وخُمول سُور، واختلالُ أمور. وقد سَقَطت دعوى المَنَعَة، فلنرجع إلى قيم الصّنعة فنقول: مالقة

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

حَرَسَها الله، طراز الدّيباج المُذْهب، ومعدن صنايع الجلْد المُنتخب، ومذهب الفخّار المجلوب منها إلى الأقطار، ومقْصر المتاع المشدود، ومضْرب الدِّسْت المضروب، وصُنْعا صنايع الثياب، ومَحجّ التُّجار إلى الإياب لإفعام العُباب، بشهادة الحسِّ، والجنِّ والإنس، ولا يُنكر طلوع الشّمس؛ وأيّ صِناعة في سلا؟!، يُقصد إليها ويُعوِّل عليها، أو يُطرف بها قطرٌ بعيدٌ، أو يُتَجمّل بها في عيد. ومنذ سَقَطت مزيَّةُ الصّنعة، فلنرجع إلى مزيّة البُقعة فنقول، خصَّ الله مالقة بما افْتَرق في سواها، ونشر بها المحاسن الّتي طواها، إذ جَمَعت بين دَمِث الرّمال، وخصب الجبال، وقارَّة الفلاحة المخصوصة بالاعتدال، والبحر القديم الصِّداع، المُيَسَّرة مراسيه للحطّ والإقلاع، والصّيد العميم الانتفاع؛ جبالها لوزٌ وتين، وسهلها قصورٌ وبساتين، وبحرها حيتان مرتزقة في كلّ حين ومزارعُها المغلّة عند استبداد السِّنين، وكفى بفحص قافره صادعٌ للبرهان المُبين؛ وواديها الكبير عذبٌ فُرات، وأدواح مُثْحرات، وميدان ارتكاض بين بحر ورياض.

وسلا، بلدُ الرّجال، ومَراعى الجمال بَطيحةٌ لا تُنجب السّنابل، وإن عرفت المطر الوابل جُرد الخارج، وبحرها مكفوف بالقَتَب والمدارج، وواديها ملحٌ المذاق، مستمدٌّ من الأجاج الزّلاّق، قاطع بالرّفاق من الآفاق إلى بُعد الإنفاق، وتوقُّع الإغراق، وشابلها مقصور على فَصْلٍ، وكم الشّوكة من شانَصْل، عديمة الفاكهة والمتنزّهات النّابهة، وإذا بان مَصَلُ النَّقْعة فلنلمّ بذكر الشَّنعة، وهو ممّا يُحتمل فيه النِّزاع، ولاتُعطى الأبصار وتُطمس الأسماع».

فمالقة في نظر ابن الخطيب تحتلّ موقعاً منيعاً، ولها قصبة شامخة، أسوار وأبراج وأرباض عظيمة، وأمّا سلا فتمتلك قصبة متواضعة، وأسواراً خاملةً؛ وبينما تفتخر مالقة بصناعة فخارها وثيابها، وقد جمعت بين الخصب والفلح، وبها القصور والبساتين واللّوز والتّين، إذا بسلا خالية من الصّناعة، ولا زرع بها، وواديها ملح، وليست بها فاكهة ولا منتزهات؛ «إذ مالقة دارُ مُلك في الرّوم، ومثوى المصاعب والقُروم، تشهدُ بذلك كتبُ الفتح المعلوم، وذات مُلك في الإسلام عديد الجيوش، خافق الأعلام، غنيٌّ بالشُّهرة عن الإعلام، سكنها ملوك الأدارسة الكرام، والصّناهِجة الأعلام، ثمّ بنو نصر، أنصار الإسلام، وجيشُها اليوم مشهور الإقدام، متعدِّد المين على مرِّ الأيّام، وتُجَّارها تعقد لواءً خافقاً، وتقيمُ للجهاد سوقاً نافقاً، وتُركض الخيول السّانحة، وتعامل الله على الصّفقة الرّابحة، وكفاها أنّها أُمٌّ للعدّة من الثّغور والحصون، والمدن ذات الحِمى المَصون، وشجرةُ الفروع الكثيرة والغُصون، وما منها إلاّ مِعقل سامٍ، وبلدٌ بالخيل والرَّجل مُترامٍ، وغيدُ حامٍ يحتوي بها ملكٌ أذخٌ، ونسيقٌ فيها للسُّلطان فخرٌ باذخٌ. وأيْن سلا من هذه المزيَّة؟ والشَّنعة العليّة، أين الجنود والبُنود والحُصون تزور منها الوُفُود، وإن كان بعضُ

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الملوك اتّخذها داراً، واستطانها من أجل الأندلس قراراً، فلقد تَمَّ وما أتمَّ، وطلبه تَمَّ، ولنقُل في الحضارة بمقتضى الشّواهد المختارة، ولا كالحُلى والطّيب، والحُلل الدّيباجيَّة والجلاليب، والبساتين ذاتِ المرأى العجيب، والقُصور المُبْتناة بسفوح الجبال، والجنّات الوارفة الظّلال، والبرَك النّاطقة بالعَذْب الزُّلال، والملابس المختالة في أفنان الجَمَال، والأعراس الدّالة على سِعة الأحوال، والثّروات المقدّرة بالآلاف من الأموال.

وأمّا سلا، فأحوال رقيقة، وثيابٌ في غالب الأمر خليقة، وذممٌ منحطَّةٌ فقيرة، وقيساريَّة حقيرة، وزيت مجلوب، وحُلىً غير معروف ولا منسوب، تملأ مسجدَها الفذَّ العُدد والأكْسِية، وتعدَمُ فيها أو تقلُّ الطّيالس والأرْدِية، وتندُر البغال، وتشهد بالسّجيّة البربريّة الأصوات واللُّغات والأقوال والأفعال، وأمّا العِمارة فأين يذهبُ رايدُها، وعَلامَ يُعوِّلُ شاهدها، وما دار عليه السُّور متراكمٌ متراكبٌ، منسحبةٌ مبانيه كما تفعل العناكب، فناديقه كثيرة، ومساجده أثيرة، وأرباضُه حافلة، وفي حُلل الدَّوح رافلة، وسِككه غاصَّة وأسواقه بالدّكاكين متراصّة، أقسِم لربضٍ من أرباضها، أعمر من مدينة سلا، وأبْعد عن الوجود الخلا، وأمْلى مهما ذكر الملا، بلدٌ منخرق منقطع مفترق، ثلثه مقبرةٌ خاليةٌ وثلثه خُرِب باليةٌ، وبعضه أخْصاص وأقفاص ومعاطن وقِلاص، وأوارى بقرٍ تحلب، ومعاطن سامية تُجلب. وأمّا الإمارة فمالقة القدح المعلّى والتّاج المحلّى، وهي على كلّ حال بالفضل أولى، حيث مناهلُ المختصِّ، والخارج الأفيح الفحص، وسلا لا تأكل إلاّ من غزرة حالِب، لا من فلاحة كاسب.

ومالقة مُجْتزية بنفسها في الغالب، محتَسبة من شرقها وغربها بطّلب الطّالب، وأمّا النّضارة، فمن ادّعى أنّه ليس في الأرض مدينة أخْطَر منها جناباً، ولا أغزر منها غروساً وأعناباً، ولا أرجُّ أزهاراً، أضْوَأُ أنهاراً، لم تُكذَّب دعواه، ولا أزْرى به هواه، إنّما هي كلُّها روْض، وجابيةٌ وحوض، بساتينُ قد رَقَمَتها الأزهار وترنَّمت بها الأطْيار.

وسلا بلد عديم الظّلال، أجرد التّلال، إذا ذهب زمنُ الرّبيع، والخِصْب المَريع، صار هشيماً، وأضحى ماؤها حميماً، وانقلب الفصلُ عذاباً أليماً. أمّا المساكن فَحَسْبُك ما بمالقة من قصور بيضٍ، وملك طويلٍ عريض؛ جنّة السَّيد، وما أدريك بها من جنّةٍ دانية القُطُوف، سَامية السُّقوف، ظاهرةِ المزيّة والشُّفوف، إلى غيرها ممّا يشدُّ عن الحصْر إلى هذا العصر، والجنّات الّتي ملأت السّهل والجبل، وتجاوزت الأمل، بحيث لا أسد يمنع من الإضحار بالعشيِّ والأسحار، ولا لِصٌّ يسجن بسببه في الدّيار... أمّا سلا، وإن كان بها للملك دورٌ وقصور، ولأهل الخدمة بنا مَسْتور، فهو قليل، وليس للجمهور إليه سبيل؛ وأمّا المساكن بمالقة بين

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

راضٍ قيد الحياة، ومُنتقل من جنّاتها إلى رَوْضات الجنّات، فأكْبِرْ به أن يفاضل، أو يُجادل فيه أو يُناضل، ولا شاهد، كالصِّلات الباقية المُكتتبة والتّواريخ المقرّرة المرتّبة، فاستشْهد مُغرب البيان وتاريخ ابن حيّان، وتاريخ الزّمان، وكتاب ابن الفَرَضي وابن بشكُوال وصلة ابن الزُّبير القاضي، ومن اشتملت عليه من الرّجال، وصِلة ابن الأبّار، وتاريخ ابن عَسْكر وما فيه من الأخبار، وبادر بالإماطة عن وجه الإحاطة، ترى الأعلام سامية، وأدْواح الفُضلاء نامية، وأفراد الرّجال، يضيق بهم رحْب المجال. وسلا المِسْكينة لا ترجو لعِشْرتها إلاّ ابن عشرتها، مهملة الذّكر والإشادةِ، عاطلةٌ من حُلى تلك السّيادة، وإن كان بها أصلُ مجادة، وسَالكي سبيل زيادة؛ فكم بمالقة من ولْي، وذي مكان عليّ، ومن طنْجالي وسَاحلي؛ وهذه حُجج لا تَدْفع ودلايل إنكارها لا ينفع، فمن شاء فليُوثر الإنصاف بالإنصاف، ومن شاء فليوثر الخلاف، وسجايا الأخلاف؛ فأنا يعلم الله قد عدلتُ لمّا حكمت، ودفعت لمّا ألمت، وسكتُّ عن كثير، وجَلْب فضل أثير، إذ لم تخرج إليه ضرورة الفجر، ولا داعية القهر، ولو شِيت لجليتُ من أدلّة التّفصيل، ما لا يُدفع في عِقده، ولا سبيل نقده، لكن اللّه أغنى عن ذلك، وكفى بهذه المسالك [بياناً للسّالف] وفضلاً بين المَملوك والمالك، والله يَشمل الجميع بنُعماه، ويتغمَّد الحيّ والميّت برحماه، وفَصْلُ الخُطّة أن لمالقة المزيّة بجلاها وكمالها، وحُسن أشكالها [ووفُور مالها، وتهدّل ظلالها، وشُهرة رجالها وطرق صنايعها وأعمالها، ولسلا الفضلُ لكن] على أمثالها ونظايرها من بلاد المغرب وأشكالها إذ لا يُنكر فضل اعْتِدالها، وأمنِها من الفِتن وأهوالها عند زلزالها، ومدفن الملوك الكرام بجبالها، ومالقة قطرٌ من الأقطار، ذوات الأقدار والأخطار، وتحصيل الأوطار، وسلا مصبُّ الأمطار، ومرعى القِطار، وباديةٌ بكلّ اعتِبار، وهنا نُلقِي عصا التَّسيار، ونفضُّ من عِنان الإكثار وحسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

لقد حاول ابن الخطيب في هذا النص، تبيان الفروق بين مالقة وسلا، فأشار إلى أنّ مالقة كانت دار ملك عند الرّوم، وكانت كذلك في الدّولة الإسلامية أيّام الأدارسة والصّهانجة وبني نصر[2]، ولكن سلا لا تملك شيئاً من هذه المزايا؛ فأسواقها صغيرة، وعماراتها متواضعة، ومالقة عامرة بالنّعم والأسواق، وكلُّها نضارة وظلال وأزهار، وهي غاصة بالفضلاء والأولياء، وسلا عاطلة من ذلك، فحَريٌّ بها أن تفاضل بأشباهها من مساكن البدو، لا بالحواضر العامرة.

إذا لقد احتوت على إشارات جغرافية كثيرة إضافة إلى إشارات تاريخية فمثلا عندما تحدث عن سور سلا فهو حقير يحتاج إلى الإصلاح بسبب الإهمال،

---

[1] الريحانة، 2: 355 360.

[2] ينظر أعمال الأعلام،3 : 241.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وهذا بالطبع يحد من منعتها أمام هجوم الأعداء وخاصة الروم، هنا إشارة تاريخية واضحة لإغارات النصارى الأسبان.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الفصل الرّابع

مقامات لسان الدّين ابن الخطيب

تعريف المقامة

1. مقامة السياسة
2. مقامة معيار الاختيار في احوال المعاهد والديار
3. خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- تعريف المقامة لغة واصطلاحا:

- المقامة لغة:

لقد عرّفت المعاجم القديمة والحديثة لفظة المقامة بتعاريف متقاربة فذكرها أبو منصور الأزهري قائلا[1]:

مقامات الناس مجالسهم، ويقال للجماعة يجتمعون في المجلس مقامة، ومنه قول لبيد:

وَمَقامةٍ غُلبِ الرقاب كأنَّهم ❁ جِنٌّ لدى باب الحَصيرِ قِيامُ

ويقال: أقمت بالمكان مقاما وإقامة.

كما نجد هذا المعنى أيضا عند الجوهري حيث يقول[2]:

" المقامة بالفتح المجلس، والجماعة من الناس، والمقامة بالضم الإقامة".

وجاء في لسان العرب[3]: "المقامة المجلس، ومقامات الناس مجالسهم".

والمعنى نفسه ورد في القاموس المحيط[4]: المقامة المجلس، وكذلك في تاج العروس[5].

وقد تطور هذا المعنى وأصبح يعني "الأحدوثة من الكلام " يقول القلقشندي (ت 821 هجرية)" وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة"[6]

---

(1) تهذيب اللغة، مادة "قوم".
(2) الصحاح ، مادة "قوم"
(3) لسان العرب، ابن منظور، مادة "قوم"
(4) الفيروز آبادي،4: 167.
(5) الزبيدي، 9: 39.
(6) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 14: 110.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- المقامة اصطلاحا:

المقامة حديث أدبي بليغ وضع في صورة قصصية أقرب إلى الحيلة منه إلى القصة، تظهر فيه البراعة اللغوية، وقوة العارضة، وسعة العبارة، والمهارة الأدبية.[1]

ويعرّف عمر رضا كحالة المقامة بقوله:

(تطلق لفظة المقامة اصطلاحا على قصة نثرية وجيزة مشتملة على ملحمة يرويها الكاتب على لسان شخص فرضي، وقد تكون طويلة أيضا، وقد تورد في خلالها أشعار كثيرة لتزيد المتكلمين قوة، والمترسلين بلاغة، ولا بأس بأن تكون لصاحب المقامة أو لغيره، ومن ملتزمات المقامة أن يضع الكاتب فيها غرائب اللغات، ويذكر حظاً وافراً من الكلمات، ويبذل واضع المقامة كل همته في تزيينها وتحسينها، ويأتي بنوادر التركيب، ويبالغ في الصناعة اللفظية، ويزينها بما استطاع من الحكم والأمثال ...)[2].

ويبدو أن هذا التعريف من أشمل ما عرفت به المقامة بصورتها النهائية، فقد جمع فيه الكاتب معظم خصائص المقامة وقواعدها الأسلوبية.

ويمكن القول: إن "المقامات" طراز من النثر الفني، ظهر أوّلا في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني، ثم حذا الحريري حذوه فيه، وعن طريقهما انتشر في شتى البيئات العربية، ومنها بيئة الأندلس.

وللسان الدين بن الخطيب مقامات عديدة، منها:

1. مقامة السّياسة:

وهي مقامة طويلة، يقول إنّه أملاها في ليلة واحدة، وبنى مقامته على حوارٍ بين بطلين هما: الخليفة هارون الرّشيد، وحكيمٌ فارسيُّ الأصل عربيُّ اللّسان، واستهلّها بقوله[3]:

---

(1) المقامة، شوقي ضيف:9.
(2) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام: 205 ـ 206.
(3) الريحانة، 2: 316.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

« حدّث من امتاز باعتبار الأخبار، وحاز درجة الاشتهار، بنقل حوادث اللّيل والنّهار، وولج بين الكمائم والأزهار، وتلطّف لخجل الورد من تبسّم البهار.

قال، سهر الرّشيد ليلة، وقد مال في هَجْر النّبيذ ميلةً، وجهد ندماؤه في جَلْب راحته، وإلمام النّوم بساحته، فشحّت عهادُهم، ولم يُغن اجتهادهم. فقال، اذهبوا إلى طرق سمَاها ورسمها، وأمّهات قسمها، فمن عثرتهم عليه من طارق ليل، أو غثاءِ سيْل، أو ساحب ذَيل، فبلّغوه، والأمنة سوِّغوه، واستدعوه، ولا تَدعوه، فطاروا عجالا، وتفرّقوا رُكبانا ورجالا، فلم يكن إلاّ ارتداد طرف، أو فواق حرف، وأتوا بالغنيمة الّتي اكتسحوها، والبضاعة الّتي ربحوها، يتوسّطهم الأشعثُ الأغبر، واللّجِ الّذي لا يُعير، شيخٌ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سبْلته مُشْمطة، وعلى أنفه من القُبح مطّة، وعليه ثوبٌ مرقوع، لطير الخرْق عليه وقوع، يُهينم بذكرٍ مسموع ويُنْبَنى عن وقت مجموع. فلمّا مَثُل سلّم، وما نَبَس بعدها ولا تكلّم، فأشار إليه فقعد، بعد أن انشمر وابتعد، وجلس، فما استرقّ النّظر ولا اختلس، إنّما حركة فكره، معقودة بزمام ذِكره، ولحظات اعتباره، في تفاصيل أخباره، فابتدَره الرّشيد سائلا، وانحرف إليه مائلا، وقال ممنَّ الرّجل، فقال فارسي الأصل، أعجميُّ الجنس، عربيُّ الفصل. قال بلدك، وأهلك ووَلدك. قال أمّا الولدُ، فولد الدِّيوان، وأمّا البلد، فمدينة الإيوان. قال النِّحلة وما أعلمت إليه الرِّحلة، قال أمّا الرّحلة فالاعتبار، وأمّا النِّحلة فالأمور الكبار.

قال، فنُّك، الّذي اشتمل عليه دَنُّك، فقال، الحكمة فَنِّي الّذي جعلته أثيرا، وأضجعت منه فراشا وثيرا، وسبحان الّذي يقول، ومَنْ يُؤْت الحِكْمَة، فَقَد أُوتَى خَيْراً كَثِيراً، وما سوى ذلك فتَبيعٌ، ولي فيه مصطاف وتربيع، قال، فتعاضد جَذل الرّشيد وتوفّر، وكأنّما غشِي وجهه قطعة من الصّبح إذا أسفر، وقال، ما رأيت كاللّيلة أجمع لأمل شارد، وأنعم بمؤانسة وارد. يا هذا إنّي سائلك، ولن تخيب بعدُ وسائلُك، فأخبرني بما عندك في هذا الأمر الّذي بُلينا بحمل أعبائه، ومُنينا بمراوضة آبائه، فقال، هذا الأمر قلادةٌ ثقيلة، ومن خُطَّة العجز مُستقيلة، ومُفتقرة لسعة الذرَّع، وربط السّياسة المدنية بالشّرع، يُفسدها الحلم في غير محلّه، ويكون ذريعةً إلى حلّه ويصلحها مقابلة الشّكل بشكله:

ومَنْ لَمْ يكُنْ سَبْعاً آكِلاً ❁ تَدَاعَتْ سبَاعٌ إلى أكْلِه

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

قال الملك، أجْمَلْتَ ففصِّل، وبَريت فنصِّل، وكِلْت فأوْصِل، وانثُر الحبَّ لمن يُحَوْصِل، واقْسِم السّياسة فنوناً، واجعل لكلّ لقب قانوناً، وابدأ بالرَّعيَّة، وشروطها المَرْعيَّة»[1].

هذه هي مقدّمة المقامة الّتي جاءت بأسلوب سلس واعتمد فيها على التزام نوعين من البديع السّجع والجناس النّاقص، وتحدّث عن الحكيم إذ هو فارسيّ الأصل، عربيّ اللّسان، آتاه الله من الحكمة الشّيء الكثير، فطلب منه الخليفة الولوج في الموضوع، وأن ينطلق في الكلام عن السّياسة، وأن يفصّل، وأن يبيّن الشّروط المرعية في الرّعيّة، فبدأ بالحديث عن الشروط:

« فقال: رعِيَّتُك ودائع الله قِبَلَك، ومرآة العدل الّذي عليه جِبِلَّك، ولا تصل إلى ضبْطهم إلاّ بإعانته الّتي وهب لك، وأفضل ما استُدْعِيت به عَوْنُك فيهم، وكفايته الّتي تكفيهم، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسَّهر لتنْويمهم، وحراسة كَهْلهم ورَضيعهم، والترفُّع عن تضْييعهم، وأخذِ كلّ طبقة بما عليها، ومالها، أخْذاً يَحُوط مالها، ويحفظ عليها كمالها، ويُقْصر عن غير الواجب آمالها، حتّى تَسْتَشْعر عليُّها رأفتك وحنانك، وتعرف أوساطُها في النّصب امتنانك وتحذر سِفْلتُها سِنانك، وحظْر على كلِّ طبقة منها، أن تتعدّى طورها، أو تخالف دَوْرها، أو تجاوز بأمر طاعتك فوْرها، وسُدَّ فيها سُبُل الذّريعة، واقتصر جميعها على خِدمة الملك بموجب الشّريعة، وامنع أغنِياءَها من البَطر والبطالة، والنّظر في شُبُهات الدّين بالتّمشدق والإطالة، وليقلَّ فيما شجر بين السّلف كلامها، وترفض ما ينبز به أعلامُها، فإنّ ذلك يُسقط الحقوق، ويرتّب العُقوق، وامْنعهم من فُحش الحرص والشّره، وتعاهَدْهم بالمواعظ الّتي تَجْلُوا البصائر من الموه، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحْسن المذاهب، وانههُم عن التّحاسد على المواهب، ورُضْهم على الإنفاق بقدْر الحال، والتّعزّي عن الفائت، فردُّه من المحال. وحذّر البخل على أهل اليسار، والسَّخاءِ على أُولي الإعْسار. وخُذْهم من الشّريعة بالواضح الظّاهر، وامنعهم من تأويلها مَنْع القاهر. ولا تُطْلق لهم التَّجمُّع على من أنكروا أمرَه في نواديهم، وكُفَّ عنهم أكُفَّ تعدّيهم. ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم. ولتكن غايتهم فيها توجّهت إليه إبانتهم، ونَكَصَت عن الموافقة عليه رايتُهم، إنْهاؤه إلى من وَكَلْتُهُ بمصالحهم من ثِقاتك، المحافظين على أوقاتك. وقدِّم منهم من أمِنْت عليهم مَكْرَه، وحَمِدْت على الإنصاف شكره، ومن كثُر حياؤُه مع التّأنيب، وقابل الهفوة باستقالة المُنيب، ومن لا يتخطّى عندك محلّه الّذي حلّه، فربّما عَمَدَ إلى المُبْرم فحلّه. وحسِّن النّية لهم بجهد الاستطاعة، واغتفر المكاره في جنب حُسن الطّاعة. وإن ثار جرادُهم واختلف في طاعتك مرادُهم، فتحصّن

[1] الريحانة، 2: 318.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

لثورتهم، واثبت لفَوْرتهم فإذا سألوا وسَلُوا، وتفرّقوا وانْسَلُّوا، فاحتقر كثرتهم، ولا تُقِل عثرتهم واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نَكالاً، ولا تترك لهم على حِلمك اتّكالاً»[1].

إذاً هذه هي الشّروط الّتي يجب على الخليفة أن يراعيها في رعيّته، ثم بيّن حكيم ابن الخطيب خلال الوزير الصّالح، وأحوال الجند:

« ثمّ قال: والوزير الصّالح أفضل عُدَدِك، وأوْصَل مَدَدِك فهو الّذي يصونك عن الابتذال، ومباشرة الأنذال، ويَثِب لك على الفرصة، وينوب في تجرُّع الغُصَّة، واستجلاء القصّة، ويستحضر ما نسيتَه من أُمورك، ويغلّب فيه الرّأي بموافقة مأمُورك، ولا يَسَعُه ما تمكنك المسامحة فيه، حتّى يستوفيه. واحذر مصادمة تيّاره، والتّجوُّز في اختياره، وقدِّم استخارة الله في إيثاره، وارْسل عيون الملاحظة في آثاره، وليكن معروف الإخلاص لدولتك، معقود الرِّضاءِ والغضب برضاك وصَوْلتك، زاهداً عمّا في يديك، مؤثّراً كلّ ما يُزْلف لديك، بعيدِ الهمّة، راعيّاً للأذمّة، كامل الآلة، محيطاً بالإيالة، رحب الصّدر، رفيع القَدر، معروف البَيْت، نبيهَ الحيِّ والمَيْت، مؤثّراً للعدل والإصلاح، دَرِباً بحمل السّلاح، ذا خبرة بدَخْل المملكة وخَرْجها، وظَهْرها وسَرْجها، صحيح العقْد، متحرّزاً من النَّقْد، جادّاً عند لَهْوك، متيقّظاً في حال سَهْوك، يلين عند غضبك، ويَصل الإسهاب بمقتضبك، قلقاً من شكره دونك وحمْده، ناسباً لك الأصالة بعَمْده. وإن أعيا عليك وجود أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نَقِيضِها شيءٌ من الاختلال، فاطلب من سكون النّفس، وهدوء ها، وأن لا يرى منك رُثْبةً إلاّ رأى قَدْرَه دونها. وتقوى الله تَفْضُل شرف الانتساب، وهي للفضائل فذْلكةُ الحساب، وساوِ في حِفْظ غَيْبه بين قُرْبه ونأيه، واجعل حظّه من نِعمتك موازياً لحظّك من حُسْن رأيه، واجتنب منهم من يرى في نفسه إلى المُلك سبيلا، أو يقود من عِيصه للاستظهار عليك قبيلاً، أو من كاثر مالك مالُه، أو من تقدم لعدوّك استعماله، أو من سَمَتْ لسواك آماله، أو من يَعْظُم عليه إعراض وجهك، ويهمّه نادرة نهْجك، أو من يُداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

وأمّا الجند فاصْرف التّقويم منهم للمقاتلة والمكايدة المُخاتلة، واسْتَوف عليهم شرائط الخدمة، وخُذْهم بالثّبات للصّدمة، ووفِّ ما أوْجَبت لهم من الجِراية والنِّعمة، وتعاهدهم عند الغِناء بالعَلَفِ والطُّعمة، ولا تُكرِّم منهم إلاّ من أكرمه غناؤه، وطاب في الدَّبِّ عن ملّتك ثناؤه، ودلّ عليهم النُّبهاء من خِيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتنان بأهلهم ودِيارهم، ولا توطّئهم الدَّعة مهاداً، وقدِّمهم على

[1] المصدر السابق، 2: 319.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

حِفْظك وبُعوثك متى أردتَ جهاداً، ولا تُلِن لهم في الإغماض عن حُسن طاعتك قياداً، وعوِّدهم حُسن المواساة بأنفسهم اعتياداً، ولا تسمح لأحد منهم في إغفال شيءٍ من سلاح استظهاره، أو عُدّة اشتهاره، وليكن ما فَضَل عن شَعبهم وريِّهم مصروفاً إلى سلاحهم، وزيِّهم، والتّزيُّد في مراكبهم وغِلمانهم، من غير اعْتبار لأثمانهم. وامْنعهم من المُسْتَغلاّت والمتاجر، وما يُتَكسَّب منه غير المشاجر، وليكن من الغَزْو اكتسابُهم، وعلى المغانم حسابُهم، كالجوارح الّتي تُفْسد باعتيادها، أن تُطْعَم من غير اصْطيادها. واعلم أنّها لا تَبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلاّ لمن يملك قلوبها بالإحسان، وفضل اللّسان، ويملك حركاتها بالتّقويم، ورُتَبَها بالميزان القويم، ومن تثق بإشفاقها على أولادها، وتشتري رضا الله بصبرها على طاعته وجلادها، فإذا اسْتَشْعَرْت لها هذه الخلال، تقدمتك إلى مواقف التّلف، مطيعةً دواعي الكَلَف، واثقةً منك بحسن الخُلُف، واسْتَبق إلى تمييزهم استباقاً، وطبِّقهم طِباقاً، أعلاها من تأمَّلت منه في المحاربة عنك إحظاراً، وأبعدهم في مَرْضاتك مطاراً، واضْبَطْهم لما تحت يدك من رجالك حزْماً ووقاراً، واستهانةً بالعظايم واحتقاراً، وأحْسِنْهم لمن تُقَلِّدُه أمْرَك من الرّعيَّة جواراً، إذا أجَدْت اختياراً، وأشِدْهم على مُماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصْطِباراً. ومن بَلِي في الذبِّ عنك إحْلاءً وإمْراراً، ولحقه الضُّر في معارك الدّفاع عنك مِراراً. وبَعْده من كانت محبَّتُه لك أكثرَ من نَجْدته، وموْقع رأيه أصْدَق من موقع صَعْدته. وبعده من حَسْنُ انقيادُه لأمرائك وإحماده لآرائك، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعلته، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله، واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من مَوْقِعه في الانتفاع، ولم يستح من التّزيُّد بأضعاف ما بذله من الدّفاع، وشكى البخْس فيما تعدَّر عليه من فوائدك، وقاس بين عوائد عدوّك وعوائِدك، وتوعَّد بانتقاله عنك وارتحاله، وأظهر الكراهيّة لحاله» [1].

لقد ذكر خلال الوزير الصّالح، فمن رحابة الصّدر، إلى رفعة القدر، وأن يكون معروف البيت، نبيهاً، عادلاً، مُدرّباً على حمل السّلاح، ذا خبرة...، وبيّن أحوال الجند، وما يجب تعويدهم عليه من حسْن الانقياد، وتوفير الجراية، ليمرّ بعد ذلك إلى أحوال العمّال:

« وأمّا العُمّال فإنّهم يبينون عن مَذْهَبك، وحالهم في الغالب شديدة الشّبَه بك، فعرِّفهم في أمانتك السّعادة، وألزمهم في رعيّتك العادة، وأنْزلهم من كرامتِك بحسب منازلهم في الاتّصاف بالعدل والإنصاف، وأحِلهم من الحِفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكِفاية، وقِفْهم عند تَقْليد الأرجاءِ مواقف الخوف والرّجاء، وقرّر في نفوسهم أنّ أعظم ما به إليك تقرَّبوا، وفيه تدرَّبُوا، وفي سبيله أعجَمُوا

[1] المصدر السابق، 2: 322.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأعْرَبُوا، إقامة حقٍّ، ودَحْض باطل، حتّى لا يشكو غَرِيم مَطْلِ ماطل، وهو آثِرُ لديك من كلّ رِباب هاطِل.

وكُفّهم من الرِّزق الموافق عن التّصدّي لدنِّي المرافق. واصطنع منهم من تيسَّرت كُلْفته، وقويت للرّعايا أُلْفَته، ومن زاد على تأمِيله صبره، وأرْبَى على خَبَره خُبْره، وكانت رغبته في حُسْن الذّكر، تَشِفُّ على غيرها من بنات الفِكر. واجتنب منهم من غلب عليه التَّخرُّق في الإنفاق، وعدم الإشْفاق، والتّنافس في الاكْتِساب، وسَهُل عليه سوءُ الحِساب، وكانت ذريعته المُصانعة بالنِّفاية، دون التَّقصِّي والكِفاية، ومن كان منشؤه خاملا، ولأعباءِ الدَّناءة حاملا، وابْغ من يكون الاعتذار في أعماله، أوضح من الاعتذار في أقواله، ولا يَفْتنّك من قلّدته اجتلاب الحظّ المُطمِع، والتَّنقُّق بالسَّعي المُسْمع ومخالفة السُّنن المرعيَّة وإتْبَاعه رضاك بسُخْط الرعيَّة، فإنّه قد غشَّك من حيث بلّك ورشَّك، وجعل مَنْ يمينك في شمالك، حاضر مالك، ولا تَضْمن عاملاً مال عملُه، وحلّ بينه فيه وبين أمَلِه، فإنّك تُميت رُسومك بمحْياه، وتُخْرجُه من خدمتك فيه إلاّ أن تملّكه إيّاه. ولا تجْمع له في الأعمال، فيُسْقِط استظهارك ببلْدٍ على بلد، والاحتجاج على والد بوَلَد، واحْرص على أن تكون في الولاية غريبا، ومُتَنقّله منك قريباً، ورَهينةٌ لا يزال معها مُريبا، ولا تقبل مصالحته على شيءٍ اخْتَانَه، ولو برغيبة فَتانه، فتتقبّل المصانعة في أمانتك، وتكون مشاركاً في خِيانتِك، ولا تُطل مدَّة العمل، وتعاهدْ كشف الأُمور ممَّن يرعى الهمل، ويبلغ الأمل»[1].

وبعدما بيّن أحوالَ العمّال ووجوبَ حُسْن اختيارهم بتوفر الكفاية والأمانة، انتقل إلى شرح السّياسة الّتي ينبغي اتّباعها في تربية الأبناء:

« وأمّا الولد فأحسن آدابهم، واجعل الخير دأبهم، وخَف عليهم من إشفاقك وحنانك، أكثر من غِلْظَة جَنانك، واكتم عنهم ميْلك، وأفضْ عليهم جُودك ونيْلك، ولا تستغرق بالكَلَف بهم يومك ولا ليلك، وأثِبْهم على حُسْن الجواب وسبِّق إليهم خوف الجزاء على رجاء الثّواب، وعلِّمهم الصّبر على الضّرائر، والمُهْلة عند استخفاف الجرائر، وخُذْ لهم بحسن السّرائر، وحبِّب إليهم مَراس الأُمور الصّعبة المراس، وحصِّن الاصطناع والاغتراس والاستكثار من أولى المراتب والعلوم، والسّياسات والحُلوم، والمقام المعلوم، وكرِّه إليهم مجالسة المُلْهين، ومصاحبة السّاهين، وجاهد أهواءَهم عن عقولهم، واحْذَر الكذب على مَفْولهم، ورشِّحهم إذا أنِسْت منهم رَشَداً أو هدياً، وأرضعهم من المؤازرة والمُشاورة ثدْياً، لتمرِّنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورُضْهم رياضة الجياد، واحذر عليهم الشّهوات

[1] المصدر السابق، 2: 324.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم. وتدارك الخلق الذّميمة كلّما نجمت، واقْذَعها إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في صغرهم الحيل، عَظُمَ الميل.

إنّ الغصونَ إذا قوَّمْتَها اعْتدلت ولن تَلِينَ إذا قَوَّمْتَها الخُشُبُ

وإذا قدروا على التّدبير، وتشَوَّفوا للمحل الكبير، فلا توطِنهم في مكانك جهْد إمكانك، وفرقهم في بلدانك، تفريق عُبْدانك. واستعملهم في بعوث جهادك، والنّيابة عنك في سبيل اجتهادك، فإنّ حَضْرتك تُشْغلهم بالتّحاسد، والتّباري والتّفاسد.

وانظر إليهم بأعين الثّقات، فإنّ عين الثّقة، تُبْصر ما لا تبصر عين المحبّة والمِقة»[1].

هذا ما ينبغي اتباعه في تربية الأبناء وتنشئتهم وذلك بإحسان أدبهم، وتعليمهم الصّبر، والابتعاد عن الكذب...؛ ثمّ انتقل حكيم ابن الخطيب للحديث عن الخدم والحُرَم:

« وأمّا الخدم فإنّهم بمنزلة الجوارح الّتي تُفَرِّق بها وتجمع، وتُبصر وتسمع، فَرُضْهم بالصّدق والأمانة، وصُنْهم صَوْن الجفانة، وخذهم بحسن الانقياد، إلى ما آثرته، والتّقليل ممّا استكثرته.

واحذر منهم من قَويت شهواته، وضاقت عن هواه لَهْواته، فإنّ الشّهوات تنازعك في استرقاقه وتشاركك في استحقاقه. وخَيْرهم من سَتَر ذلك عليك بلطف الحيلة، وآداب للفساد مخيلة. وأشْرب قلوبهم أنّ الحقّ في كلّ ما حاولته واسْتَنْزلته، وأنّ الباطل في كلّ ما جَانَبْتَه واعتزلته، وأنّ من تصفّح منهم أمورك فقد أدْنَب، وباين الأدب وتجنّب. وأعط من أكْدَدْته، وأضَقْتَ منهم ملكه وشدَّدته، رَوْحة يشتغل فيها بما يغنيه، على حَسَب صعوبة ما يُعانيه، تُغبطهم فيها بمسارحهم، وتُجمُّ كليلة جوارحهم، ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الّذي لا يُبْطر أعلامَهم، ولا يُؤْسِف الأصاغر فيفْسد أحلامهم، ولا تَرْم محسنهم بالغاية من إحسانك واترك لمزيدهم فَضْلةً من رِفْدك ولِسانك. وحذِّرْ عليهم مخالفتك ولو في صلاحك بحدِّ سلاحك...

وأمّا الحُرَم فهم مَغارس الولد، ورياحين الخلد، وراحة القلب الّذي أجْهَدَته الأفكار، والنّفس الّتي تقسّمها الإحماد إلى المساعي والإنكار، فاطلب منهنّ من

---

[1] المصدر السابق، 2: 325.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

غَلَب عليهنّ من حسن الشِّيم، المترفّعة عن القيم، ما لا يسوؤك في خَلَدك ، أن يكون في وَلَدِك، واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصر إليهنّ سبيلاً، وانصب دون ذلك عذاباً وبيلاً، وارعهنّ من النّساء العُجُز من بانت في الدّيانة والأمانة سبله، وقويت غَيْرتُه ونُبْله، وخُدْهنّ بسلامة النّيات، والشِّيم السّنيات، وحسن الاسترسال، والخُلق السّلسال. وحذِّرْ عليهنّ التّغامز والتّغاير، والتّنافس والتّخاير، وآسِ بينهنّ في الأغراض...»[1].

بعد ذلك يذكر آداب الخليفة والصّفات الّتي ينبغي أن يتحلّى بها، فأوصاه بالعدل، وبصيانة المال، وحبّب إليه العلماء:

« ثمّ لما بلغ إلى هذا الحدِّ، حَمِي وطيس استجفاره وختم حزبه باستغفاره، ثمّ صمت مليّاً واستعاد كلاما أوّليا، ثمّ قال: واعلم يا أمير المؤمنين، سدَّد الله سَهْمك لأغراض خلافته، وعَصَمك من الزّمان وآفته، أنّك في مجلس الفصل، ومُباشرة الفَرْع من مُلكِك والأصل، في طائفة من عزِّ الله، تَذُبُّ عنك حُماتها، وتدافع عن حَوْزتك كماتها، فاحذر أن يعْدل بك غضبك، عن عدل تُزْرى منه ببضاعة، أو يهجم بك رضاك على إضاعة. ولتكن قدرتك وقْفاً على الاتّصاف بالعدل والإنصاف، واحكم بالسّويَّة، واجنح بتدبيرك إلى حسن الرَّويَّة، وخِفْ أن تقعد بك أناتُك عن حزم تعيَّن، أو تستفِزُّك العجلة في أمر لم يتبيَّن، وأطلع الحجّة ما توجّهت عليك، ولا تَحْفَل بها إذا كانت إليك، فانقيادك إليها أحسن من ظَفَرك، والحق أجْدى من نَفْرك،... ولا يزْهدنَّك في المال كثرته، فتقلَّ في نفسك أثرَته، وقِسْ الشّاهد بالغائب، واذكر وقوع ما لا يُحْتسب من النّوائب، فالمال المصون أمْنع الحصون، ومن قلَّ ماله قَصُرت آماله، وتهاونَ بيمينه شمالُه، والمَلِك إذا فقد خَزينُه، أنْحى على أهل الجِدَّة الّتي تَزينه، وعاد على رعيَّته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء مُعْتادُ عَيْشه، وصَغُر في عيون جيْشه، ومنَّوا عليه بنصره، وأنِفُوا من الاقتصار على قَصْره. وفي المال قُوّة سماوية، تَصرف النّاس لصاحبه، وتربطُ آمال أهل السّلاح به، والمال نعمة الله تعالى، فلا تجعله ذريعة إلى خلافه...

واعلم بأنّ مَواقع العلماءَ من مُلْكك، مواقعُ المشاعل المتألّقة، والمصابيح المتعلّقة، وعلى قَدْر تعاهُدِها تَبْذُل من الضِّياء، وتجلو بنورها صُور الأشياء، وفرّعها لتَحْبير ما يزين مدّتك، ويُحْسن من بَعد البِلى جدَّتك، وبعناية الأواخر، ذُكرت الأوائل، وإذا مُحيَت المفاخر خَربت الدُّول»[2].

---

[1] المصدر السابق، 2: 327.

[2] المصدر السابق، 2: 330.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ثمّ انتقل حكيم ابن الخطيب، وحدّث الخليفة هارون الرشيد عن عمارة البلدان، وخير الملوك، والجور والعدل، والشّريعة، والثّقة بالله، وأوقات الهدنة، والمعلّمين، والحُجّاب فقال :

« واعلم أنّ بقاءَ الذِّكر مشروط بعمارة البُلدان، وتخْليد الآثار الباقية في القاصي منها والدّان، فاحرص على ما يُوضِّح في الدّهر سُبُلك، ويحوز المزيَّة لك على من قَبْلك، وإنَّ خير الملوك من ينطق بالحجَّة، وهو قادر على القَهْر، ويَبْذل الإنصاف في السِّر والجهْر، مع التمكُّن من المال والظَّهر. ويسار الرعيّة جمالٌ للمُلك وشَرَف، وفاقتُهم من ذلك طَرَف، فغلِّب أيْنَق الحالين بمحلّك، وأولاهما بظَعْنك وحِلّك. واعلم أنّ كرامة الجَوْر دائرة، وكرامة العدل مُكاثرة، والغَلَبة بالخير سِيادَة، وبالشرِّ هَوَادَة.

واعلم أنّ حُسْن القيام بالشَّريعة، يَحْسِم عنك نِكاية الخوارج، ويسمو بك إلى المَعَارج، فإنّها تقْصد أنواع الخِدع، وتُوري بتغيير البِدع. واطلق على عدوِّك أيدي الأقوياءِ من الأكْفاءِ، وألْسنة اللَّفيف من الضُّعفاءِ، واستَشْعر عند نَكْثه شِعار الوَفاءِ، ولتكن ثقتك بالله أكثر من ثقتك بقوّة تجِدُها، وكَتيبةٍ تُنجدها، فإنّ الإخلاص يمنحك قُوًى لا تُكتَسب، ويُهديك مع الأوقات نصراً لا يُحتسب. والتمس سَلْم من سالمك، بنفس ما في يدك. وفضّل حاصل يومك على مُنْتَظر غَدِك، فإن أبى وَضَحت محجَّتُك، وقامت عليه للناس حُجَّتُك، فللنّفوس على الباغين مَيْل، ولها من جانبه نَيْل، واستمد كل يوم سِيرَة من يُنَاويك، واجتهد أن لا يُباريك في خير ولا يُساويك، وأكْذِب بالخير ما يُشَنِّعه من مَساويك، ولا تقبل من الإطراءِ إلاّ ما كان فيك، فضلٌ عن إطالته، وجدٌّ يُزري ببطالته ولا تَلْق المذنب بحميَّتك وسَبِّك، وذكر عند حَمِيَّة الغضب ذنوبك إلى ربّك، ولا تنس أنَّ ذَنب المُذنب أجْلسك مجلس الفَصْل، وجعل من قَبْضتِك رياش النَّصل. وتشاغل في هُدْنة الأيّام بالاستعداد، واعلم أنّ التَّراخي مُنْذِرٌ بالاشتِداد. ولا تُهْمل عَرْض ديوانك، واختبار أعْوانك، وتحصين معاقلك وقلاعك، وعُمَّ إيالتك بحسن اضطِلاعك. ولا تُشْغل زمن الهدنة بلذَّاتك، فتجني في الشِّدَّة على ذاتك. ولا تُطلق في دولتك ألْسِنة الكَهانة والإرجاف، ومُطاردة الآمال العِجاف، فإنه يبعث سوءَ القَوْل، ويفتح باب الغَوْل. وحذِّر على المدرِّسين والمعلّمين، والعُلماءِ والمُتَكلّمين، حمل الأحداث على الشُّكوك الخالِجة، والزَلاّت الوَالجة، فإنّه يُفسد طباعهم، ويُغْري سِباعَهم، ويمدُّ في مخالفة الملّة باعهم، وسُدَّ سُبُل الشّفاعات، فإنها تُفْسد عليك حُسْن الاختيار، ونفوس الخِيار، وابدُل في الأسرى من حسن مِلكَتك، ما يُرضي من ملَكك رِقابها، وقَلّدك ثوابها وعِقابها، وتلّق بدءَ نهارك بذكر الله في ترقُّعك وابْتذالك، واختم اليوم بمثل ذلك، واعلم أنّك مع كثرة حُجَّابك، وكثافة حِجابك، بمنزلة الظَّاهر للعيون، المُطالب بالدُّيون، لشدَّة البحث عن أمورك، وتَعَرُّف السرّ الخفيِّ بين آمرك ومأمورك، فاعمل في سرِّك

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

مالا تَسْتَقبح أن يكون ظاهراً، ولا تأنف أن تكون به مُجاهراً، وأحكم بَرْيَك في الله ونَحْتَك، وخَفْ من فَوْقَك يَخفْك مَن تحتَك...». [1]

وختم ابن الخطيب مقامته بخاتمة طريفة جاء فيها:

« ثمّ لمّا رأى اللّيل قد كاد يَنْتَصِف، وعمُوده يريد أن يَنْقَصف، ومَجال الوصايا أكثر ممّا يَصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحرُ السّياسة زاخِر، وعمر التّمتّع بناديك العزيز مُسْتَأْخر، فإن أذِنت في فنٍّ من فنون الأُنس يَجْذِب بالمقاد، إلى راحة الرُّقاد، ويَعْتق النَّفس بقدرة ذي الجلال، من مَلَكة الكَلال، فقال، أمّا والله قد اسْتَحسَنًّا ما سَرَدْت، فشأنك وما أردت، فاستدعى عوداً فأصلحه حتّى أحْمَده، وأبعد في اختياره أمده. ثمّ حرّك فمه، وأطال الحُسن ثَمَّه، ثمّ تغنى بصوت يستدعي الإنْصات، ويَصْدع الحَصاة، ويستفزُّ الحليم عن وقاره، و يستوقف الطَّيْر، ورزقُ بَنِيه في مِنْقاره، وقال:

صَاحِ مَا أَعْطَرَ القبول بنمَّه ❁ أَثَراها أطالت اللُّبْثَ ثَمَّه

هِي دارُ الهَوَى مُنَى النَّفْس فيها ❁ أبدَ الدَهْر والأَمانيُّ جَمَّه

ثمّ أحال اللّحن إلى لون التَّنويم، فأخذ كلّ في النُّعاس والتَّهويم، وأطال الجسَّ في الثَّقيل، عاكفاً عُكوف الضّاحي في المقيل، فخاط عيون القَوْم بخيوط النَّوم، وعَمَر بهم المراقد، كأنّما أدار عليهم الفراقد، ثمّ انصرف، فما علم به أحد ولا عَرَف. ولما أفاق الرشيد جدَّ في طلبه، فلم يُعلم بمُنْقَلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حِكمه في بُطون الأوراق، فهي إلى اليوم تُروى وتُنقل، وتُجلى القلوب بها وتُصقل، والحمد لله ربّ العالمين» [2].

هذا عرض لمقامة لسان الدين وما اشتملت عليه من قيم سياسية، تعبّر عن خلاصة آرائه وتجاربه الشّخصيّة، ونتبيّن من خلالها مقدرة ابن الخطيب الفائقة في تطويع الأدب للسّياسة والسّياسة للأدب؛ كما قال عبد العزيز عتيق: «حبّذا لو وجدت هذه المقامةُ طريقَها إلى ساستنا فأفادوا منها، وإلى طلاب العلوم السّياسيّة

---

[1] المصدر السابق، 2: 332.

[2] المصدر السابق، 2: 316 334.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

من أبنائنا، ليروا على ضوئها إلى أيّ مدى من النُّضج والعمق، بلغ الفكر السّياسيّ العربيّ في القرن الثّامن الهجريّ»[1].

2. مقامة معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار:

وهي مقامة أدبية تتألف من مجلسين، خصّص المجلس الأوّل لوصف مملكة غرناطة، وعددها أربعة وثلاثون، تبدأ بجبل الفتح وتنتهي برندة، وأجرى الحوار فيها على لسان شيخ رحالة جوّال وفتاه، وخصّص المجلس الثاني للبلاد المغربية، وعددها ثمانية عشر بلداً، تبدأ بباديس وتنتهي بغساسة، وأجرى الحوار كذلك على لسان شيخ آخر، خبير جوّالة، عثر عليه المتحدّث في أحد الأسواق.

واستهل هذه المقامة بمقدمة هي كالآتي:

«...قلت صِف لي البلاد وصفاً لا يَظْلم مثقالاً، ولا يعمل في غير الصِّدق وخدا ولا أرقالا، وإذا قُلْتم فاعْدلوا، ومن أحسنُ من الله مقالاً. قلت أنْفض لي البلادَ الأندلسية من أطرافها، وميِّز بميزان الحق بين اعْتِدالها وانحِرافها، ثمّ اتْلُها بالبلاد المرينيَّة نسقاً، واجلُ بنور بيانك غسقاً، وهات ما تقول في جبل الفتح، قال: فاتحةُ الكتاب من مُصحفِ ذلك الإقليم، ولطيفةُ السّميع العليم، وقِصص المهارق، وأفق البارق، ومتحف هذا الوطن المُباين للأرض المُفارق، بأهْل العقيق وبارق، ومحطُّ طارِقها بالفتح طارق، وارْمِ البلاد الّتي لم يُخلق مثْلُها فيها، وذو المناقب الّتي لا تحصُرها الألسنة ولا تُوفيها،... »[2]

والمقامة طويلة، سنحاول استخراج أهمّ ما تضمنته من معلومات:

- **فمدينة جبل الفتح (جبل طارق)** تتميز بنقاء هوائها، وبُعدها عن مصادر الزاد، ولابد من تموينها من الخارج.

- **اسطبونة**: كانت ذات خير وفير قبل أن يستولى القشتاليون على الجزيرة الخضراء.

- **مربلة**: مركز عظيم لصيد السردين والسمك المختلف الألوان، تمتاز بالعنب الجيد إلا أن أرضها ليست خصبة، وحصنها ليس منيعا.

---

[1] ينظر الأدب العربي في الأندلس: 499.
[2] الريحانة، 2: 284.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- **سُهيل**: تمتاز بالحصانة وبمزارع الشعير وأشجار التين، غنية بالمياه وتجود بأرضها الحبوب ووادیها وافر السمك، ولكن سواحلها معرضة للغارات.

- **مالقة**: قصبتها في غاية الحصانة، مشهورة بصناعة الفخار المذهب والأواني المختلفة الأنواع وحلل الديباج المطرزة والنسيج المختلف الأصناف، يزيد في حصانتها وجود جبل الرحمة خلفها. « دار العجائب المصنوعة والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة»[1].

شوارعها ضيقة غير نظيفة، منطقتها المزروعة صغيرة وخيرها قليل، وهي مجاورة لأرض الأعداء ومن تمّ فهي معرضة للأخطار.

- **بلّش**[2]: بلد طيب، غزير الأمطار، حصين الموقع، يشتهر بأشجار اللوز والتين، أرضها خصبة عالية الثمن، كثيرة الفواكه والحقول، وفي أخلاق أهلها عنف وشدة.

- **قمارش**: حصن كبير قرب غرناطة وافر الماء والزروع والكروم والزيتون واللوز والتين والحبوب، إلا أن أراضيها سفوح لا يستطيع فلاحتها إلا أهلها.

- **المُنكَّب**: مرفأ كبير مشهور يفد إليه الكثير من سفن بلاد النصرانية، تشتهر بجمال المناظر وحصانة معقلها وجمال مسجدها، والبلد كله عال مرتفع فيبدو مسجده شاهق العلو، وأشهر زراعتها قصب السكر والزبيب، هواؤها غير صحي بسبب ضيق مساحتها وتلاصق بيوتها وصغرها، يستورد الزيوت والقمح.

- **شلوبانية**: مدينة حصينة، وافرة الأسماك، مشهورة بزراعة الخضر، على مقربة منها حصن مُترايل، وفيها مبان عظيمة، ويرى ابن الخطيب أن أهلها لا يمتازون بالجمال.

- **برجة**: بلدة جميلة ومنطقة سياحية يتزاحم الزوّار فيها، كثيرة الزروع والزهور، موقعها حصين آمن، تشتهر بالعنب، وبتجارة الحرير.

- **دلاّية**: بلد وافر الخيرات، يشتهر بصناعة الحرير واستخراج الملح، أرضها ذات مراع تشتهر بمنتجات الألبان، ولكنها معرضة لغارات الأعداء من البحر.

---

[1] المصدر السابق، 2: 286.

[2] بلش vélez-Màlaga؛ بلدة أندلسية تقع شمال شرقي ثغر مالقة، وينتسب إليها كثير من علماء الأندلس
- ينظر تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، حسين مؤنس: 583.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- **المَرِيّة**: بلد غني حصين ومركز الأساطيل الحربية لمملكة غرناطة، أهلها مشهورون بطيب الخلق والشجاعة في الحرب، مرفأها واسع أمين معد لإيواء السفن الكبار، وقصبتها غاية في الحصانة، مدينة الأعناب والزيتون، وبلد الخام والرخام، ولكنها شديدة الحر قليلة المطر.

وهذه مجرد أمثلة مما نستطيع استخلاصه من المواد الأندلسية الأربع وثلاثين التي ضمها المجلس الأول من تلك المقامة، والتي بقي منها طَيَرنش، وبيرة، ومحاقر، وقنتورية، وبرشانة، وأورية بلْش[1]، وبسطة، ولورقة، وأشكر، واندرش، وقنالش، ووادي آش، وفنيانة، وغرناطة، والحمّة، وصالحة، وإلبيرة، ومنتفريد، لوشة[2]، وأرجدونة، وأنتقيرة، وذكوان، وقرطمة، ورندة.

أما المجلس الثاني – أي النصف الثاني الخاص بالمغرب من "معيار الاختيار"- فقد وصف فيه ابن الخطيب ثمان عشرة مدينة وقرية، سنحاول أن نستخلص الحقائق الجغرافية من بعض المواد المغربية من هذه المقامة حتى نستطيع مقارنتها بالمادة الأندلسية.

- **سبتة**: ميناء كبير ترسو فيه سفن كثيرة، حولها غابات ممتدة يؤخذ منها الخشب للوقود، محطة صيد للأسماك، معتدلة الجو، ولكن أمطارها غزيرة ورياحها عنيفة، وأهلها معرفون بالتبذير الشديد.

- **طنجة**: مدينة قديمة، وهي قريبة الشبه من جارتها سبتة، وفيها عين ماء غزيرة تعرف بعين برقان.

- **قصر كتامة**[3]: بلدة غنية بالقمح والألبان والفواكه الطيبة وخاصة التفاح، ولكن جوها غير صحي ويكثر بها البعوض.

- **أصيلا**: كثيرة المرافق، وافرة الأسماك والألبان.

- **سلا**[4]: بلد حصين يجمع بين البداوة والحضارة يشتهر بالقطن والكتان، واديه[1] واسع والبلد آمن تحيط به المزارع والمراعي.

---

[1] بلْش Vélez Rubio؛ المقصود بها بلْش البيضاء تقع غربي مدينة لورقة وشمال شرقي بسطة
- ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين، حسين مؤنس: 584.

[2] بلد ابن الخطيب.

[3] المسماة اليوم بالقصر الكبير أو قصر عبد الكريم.
- ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين، حسين مؤنس: 586.

[4] مدينة بأقصى المغرب ينظر مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين البغدادي،1: 724.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- **شالة**[2]: بلدة غنية كثيرة المياه تقوم فيها مدافن بني مرين، مشهورة بسمك الشابل.

- **أنفا**[3]: ميناء واسع النشاط، كثيرة الفواكه والأعناب، إلاّ أن مياهها غير صحية، ومناخها غير ملائم للصحة.

- **آزمور**[4]: بلد غني، يمر به نهر غزير المياه، وله مراع غنية بالماشية، وأهله يتصفون بالحرص الشديد.

هذه نماذج من المادّة الجغرافية التي تضمنتها فقرات هذه المقامة، وبقية المدن التي تكلم عنها هي:

تيط، ورباط آسفى، ومراكش، وأغمات، ومكناسة، وفاس، وأمرسلوين، وسِجِلماسة، وتازة، وغساسة.

فابن الخطيب يقدم معلومات جمّة عن الجغرافيا الطبيعية والبشرية لمملكة غرناطة والمغرب الأقصى أيام بني مرين.

ولقد أشاد بها المقري وقال إنها "مقامة عظيمة، بديعة وصف بها بلاد الأندلس والعدوة، وآتى فيها دلائل براعته بالعجب العجاب،[5] وعدّها حسين مؤنس" مقامة من الطراز الأصيل الدّي نجده عند أساطين ذلك الفن" [6] إلا أنه آذى مادته الجغرافية وأغرقها في سيل من المترادفات[7].

---

[1] أي نهره، ويراد به نهر أبي الرقراق أو بورجرج.
- ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين، حسين مؤنس:587.
[2] وما تزال الشالة الأثرية قائمة حتى اليوم في مكانها خارج أسوار مدينة الرباط عاصمة المغرب الحديثة، وتحيط بها أسوار، وتقع على منحدر، وفي نهاية هذا المنحدر مجموعة من قبور بني مرين
- ينظر: حاشية لسان الدين حياته وتراثه الفكري: 68.
[3] الاسم القديم للدار البيضاء.
- ينظر تاريخ الجغرافية و الجغرافيين، حسين مؤنس:587.
[4] أزمو: مدينة على ساحل المحيط بالمغرب الأقصى على الحافة اليسرى لمصب نهر أم الربيع، وهي كلمة بربرية معناها الزيتون البري.
- ينظر: معجم البلدان، شهاب الدين الحموي، م1 : 169، ومراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين البغدادي،1: 66.
[5] نفح الطيب،6: 213.
[6] ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين، حسين مؤنس: 580.
[7] المرجع نفسه : 581.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

3 .خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف:

وهي وصف لرحلة رافق فيها ابن الخطيب سلطان غرناطة أبا الحجاج يوسف بن نصر (733 هـ- 755هـ) لتفقد الجانب الشرقي لمملكة غرناطة، في السابع عشر من محرم من عام 748هـ.

سرد لسان الدين هذه المقامة على لسانه هو دون أن يكون لها بطل خاص بها، وقد خاطب فيها شخصية مفترضة؛ لتكون مدخلا إلى مقامته.

وكانت مدينة وادي آش من أوائل المدن التي وصلها الركب ليستقبلهم السكان استقبالا رائعا بملابسهم البيضاء، وهو الزي التقليدي لأهل الأندلس، ويواصل الركب مسيرهم شرقا مرورا ببعضي المدن والحصون مثل "بسطة" و"برشانة" حيث يشير ابن الخطيب إلى القحط الشديد الذّي كانت تعاني منه تلك المناطق نتيجة إغارات الأعداء وسيول الأمطار، ويصل الجمع "بيرة"[1] في أقاصي الحدود الشرقية للمملكة، حيث تقع على الحدود مع الدول المعادية مما كان يسبب القلق الدائم لسكان ذلك الثغر نتيجة إغارات الأعداء المفاجئة، ثم تعود الرحلة من طريق آخر مرورا بثغر "المريّة" حيث أقام السلطان وصحبه فيها ثلاثة أيام، وهي أطول مدّة يمكثها في مدينة، ويبدو أنّها المقصودة من الزيارة، حيث أطنب المؤلف في الحديث عنها قياسا على ما قاله عن الأماكن الأخرى، وهنا يصف خروج السكان لاستقبالهم قائلا: « وبرز أهلها، حتّى غَصّ بهم سهلها، وقد أخذهم الترتيب، ونظمهم المصفُّ العجيب، تقدّمها مراكب الأشياخ الجلّة، والفقهاء الّذين هم سراج الملّة، وخففت أصناف البنود المطلّة، واتّسقت الجموع، الّذين لا تُؤتى بحول الله من القلّة ... »[2]

ويذكر صعود السلطان إلى قلعة المريّة لتفقد حصونها الدفاعية ولمشاهدة آثار من ساهموا في تأسيسها وإعلاء بنيانها ممن سبقوه، ويغادر السلطان وصحبه "المريّة" مرورا بمدن مثل "بجّانة" و"مرشانة" و"فنيانة" حتّى ينتهي بهم السير ثانية إلى مدينة "وادي آش" ثم منها إلى "غرناطة"، مقر السلطان حيث وصلوها في الثامن من صفر عام 748 هـ.

وبالرغم من أن هذا الوصف يغلب عليه الطابع الأدبي، حيث استعمل الكثير من السجع والمترادفات وغيرها من المحسنات البديعية، ومقطوعات من

---

[1] ينظر الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1: 91؛ الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري: 46.

[2] الريحانة، 2: 259.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الشعر، فإنه مع ذلك يتضمن كثيرا من الحقائق الجغرافية عن مملكة غرناطة في أوائل عهد الدولة النصرية، ومن ذلك طرقاتها وقواعدها الحصينة.

كما أن كلام ابن الخطيب هنا ذو قيمة تاريخية، لأنه يصف استقبال الناس للركب ويذكر شيئا من هيئاتهم...، وبعض العادات الاجتماعية، كعادة الناس في استقبال السلاطين، والمظاهر الاحتفالية التي يلقاها السلطان، ووصف مشاركة المرأة الرجل في استقبال السلطان.

كما أشاع في هذه المقامة روح الدعابة والفكاهة كما في قوله: « فقال لست إلى قِراي بذي حاجة، وإذا عزمت فأصالحك على دجاجة ...» [1] وهناك مقامة أخرى هي: مقامة قطع الفلاة في أخبار الولاة[2]: وهي مقامة من المقامات النقدية التي صوّر فيها موقفه من علماء عصره وأدبائه، واختفى وراء راويتها في بث أحكامه، وقد أشار إلى ذلك صراحة في ختامها، حيث قال: " وأنا أزن القوم بميزانه ..."[3]

وقد نهج فيها منهجا نقديا، إلا أنه لم يتحرّ النقد الموضوعي والمنهجي، بحيث نقد أشخاصهم وما يتعلّق بهم، دون أن ينقد أدبهم.

---

(1) المصدر السابق، 2: 255.
(2) المصدر نفسه، 2 : 270 278. لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري: 244.
(3) المصدر نفسه، 2: 278.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الفصل الخامس

رحلة
نُفاضَةِ الجِراب فيْ عُلاّةِ الاغْتِراب

ـ دراسة تطبيقية –

المبحث الاول: المضمون الفكري والحضاري

المبحث الثاني: جوانب الرحلة الفنية

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

تختلف الرحلات باختلاف الأغراض البشرية، غير أن هناك أغراضا أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن الثالث الهجري، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فنا أدبيا مميزا، حدده الباحثون حديثا، وصنفوه ضمن أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعا له، لكن فريقا آخر من الباحثين، يرون أن لهذا الفن قيمتين: الأولى علمية، والأخرى أدبية؛ فهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية: "إذ تتوفر فيه مادّة وفيرة مما يهمّ المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير"[1]

وهذا يعني، أن أي رحلة كي تعد فنا، لابد أن تحمل قيمتين: علمية وأدبية، إلا أن هناك بعض الرحلات يغلب عليها الجانب العلمي، الجغرافي والتاريخي، وبعضها الآخر يغلب عليها الجانب الأدبي.

وقد كان اهتمام الرحالة بتدوين رحلاتهم قويا، وهم كثيرون، منهم: أحمد بن يعقوب مؤلف كتاب "البلدان"، وأحمد بن يحي البلاذري صاحب كتاب "فتوح البلدان"، وابن أحمد المقدسي مؤلف "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، كما تواصل تأليف الرحلات ذات الطابع الجغرافي والتاريخي وعظم، وخاصة على يد أمثال البكري، وابن جبير الأندلسي، وابن بطوطة المغربي، وأبي القاسم التيجيبي التلمساني، وعبد الرحمن بن خلدون[2]، ولسان الدين بن الخطيب في رحلته: نُفاضة الجِراب في عُلالةِ الاغْتراب.

رحلة نُفاضة الجِراب في عُلالةِ الاغْتراب:

هي رحلة ابن الخطيب إلى المغرب، عقب الثورة الّتي وقعت بغرناطة في رمضان سنة 760هـ، وفقد فيها السّلطان أبو عبد الله محمد بن الأحمر (الغني بالله) عرشه، وعبر البحر منفيا إلى المغرب، وتبعه إلى المغرب وزيره ابن الخطيب، ولمّا استقرّ ابن الخطيب في منفاه بفاس، التمس إلى حاميه السّلطان أبي سالم المريني أن يأذن له في المقام بسلا، وكذلك بأن يجوب عمالات المغرب[3]، فأذن له

---

(1) أدب الرحلة عند العرب، حسني محمود حسين: 6.

(2) للتعرف على عناوين رحلات الأعلام المذكورين، ينظر: أدب الرحلات، د. حسين محمد فهيم:22 46 79 113 .

(3) لسان الدين حياته وتراثه الفكري: محمد عبد الله عنان، القاهرة: 225.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

السّلطان، وقام ابن الخطيب برحلته فوصفها، وبدأ الوصف منذ زيارته لمنطقة جبل هِنْتاتة[1] *فقال:

« وعملنا على الصعود إلى الجبل المطلّ عليها، والجارح المرفرف على دراجها مقتصرين على حدود هنتاتة، عنصر الدّعوة، وأولياء الدّولة المرينية، وحلفاء الطّاعة المخصوصين برعي الجوار، والاستماتة من دون الحرمة، وشدّ عروة الوفاء، وسدّ الخلّة، واستحقاق الشّفوف على غيرهم والمزيّة، إذ كان ذلك أقوى بواعث الوجهة، وأخلص مقاصد الرحلة»[2].

ابن الخطيب يُشيد بفضائل منطقة جبل هنتاتة[3] وفضائل أهلها، ويبيّن البواعث الّتي دفعت به إلى القيام بهذه الرّحلة.

بعدها يبعث بمخاطبة إلى زعيم تلك المنطقة، عامر بن محمد الهنتاتي[4]، يلتمس منه فيها استدعاءه إلى تلك المنطقة، ولعل هذا يشير إلى سبب زيارته لهذه المنطقة يقول:

« وقدمت بين يدي وصولي إلى مراكش، المخاطبة إلى عميد تلك البقعة، وشاه تلك الرّقعة، صدر هذه الحدود القصوى، المتميّز بالرّجاحة والرّأي والسّياسة، المتّفق فيه على إفاضة العدل، وكفّ اليد، والتّجافي عن مال الجباية، والمستأثر بحمد الجمهور من الرّعية، وحب أولي العفاف والخيرية، إلى النُّبل الّذي لا يطيش نُبله، والإدراك الّذي لا يُفلُّ حدّه، والدّهاء الّذي لا يُسبرُ غوره، والمعروف الّذي لا يتجاوز محالّ الضّرورة حكمته، عامر بن محمد بن علي الهنتاتي»[5]

---

[1] هنتاتة: بكسر الهاء و فتحها، و سكون النون، وفتح التّاء الفوقية، بعدها ألف ممدودة ثمّ تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث، اسم يطلق على جبل من جبال أطلس كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه.

* بدأ وصف الرحلة بجبل هنتاتة، والرحلة ناقصة إذ إنّ بداية هذه الرحلة يتضمنها الجزء الأوّل المفقود، أي منذ خروجه من فاس، ومقدِمه إلى مكناسة.

– ينظر ريحانة الكُتّاب: لسان الدين، 2: 264 270.

– لسان الدين حياته وتراثه الفكري: 58 60.

[2] نفاضة الجراب، لسان الدين: 43.

[3] هذه المنطقة هي الّتي لجأ إليها أبو الحسن المريني حين طارده ولده أبو عنان، فأجاره عامر، ثمّ توفي أبو الحسن المريني بها وبين قومها.

[4] عامر بن محمد بن علي المكنّى بأبي ثابت، شيخ هنتاتة من قبائل المصامدة، تولّى أحكام الشّرطة بتونس في عهد أبي الحسن المريني، وتوفي سنة 771هـ. ينظر: نفاضة الجراب:44؛ لسان الدين حياته وتراثه الفكري:66.

[5] نفاضة الجراب: 44.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فهو يمدح عامراً ويصفه برجاحة العقل، وبأنّه إنسان عادل... ثمّ يبعث إليه بأبيات[1]، وبرسالة يقول فيها:

« لم يكن همّي، أبقاك الله، مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيّام واللّيال، إذ الشّمل جميع، والزّمن كلّه ربيع، والدّهر مطيع سميع، إلاّ زيارتك في جبلك الّذي يعصم من الطّوفان، ويواصل أمنه بين النّوم والأجفان، وأن أرى الأفق الّذي طلعت منه الهداية[2]، وكانت إليه العودة ومنه البداية، فلمّا حُمّ الواقع، وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع، وحسُنت من استدعائك إيّاي المواقع، قوي العزم وإن لم يكن ضعيفا، وعرضت على نفسي السّفر بسببك، فألفيته خفيفا، والتمست الإذن حتّى لا ترى في قبلة السّداد تحريفا، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند العزم مقدوح، والله يحقّق السُّول، ويسهل بمثوى الأماثل المثول، ويهيّء من قبيل هنتاتة القبول بفضله»[3]

فبادر عامر زعيم هنتاتة إلى استقبال ابن الخطيب، وبالغ في الاحتفاء به، فوصف ابن الخطيب كلّ ذلك قائلا:

« فأكرم الوفادة، وأطرأ بين يدي الإمارة، واستدعى من محلّ سكناه بمرّاكش إلى دار الكرامة، وشرك في الطّعام نبهاء الدّولة وعِلْية الخاصّة، وأطرف من استجلاء منزله بقرّة العين، انفساخ خطّة، والتفاف شجرة، وجرية ماء، واستبحار بركة، واستكثر من كل طُرفة، ونقل من جلسة إلى جلسة، وحرص على تتميم البرّ بكلّ حيلة»[4]

فعامر الهنتاتي دعا معه إلى المائدة نبهاء الدّولة، حيث مدحه وأكرمه، ليصحبه بعد ذلك إلى الجبل في ركب فخم، وطاف به أرجاء شعابه ومسالكه، فوصف ذلك قائلا:

« وفي يوم الاثنين المتّصل بيوم القدوم، توجّهنا إلى الجبل في كنف أصحابه تحت إغراء برّه، وفي مركب قرّة عينه، فخرجنا نستقبل بين يديه السّهل، ونُساير الجهة، ونشاهد الآثار، ونتخطّى المعاهد، وننشق النّسيم العليل القريب العهد بمادّة الثّلج وعنصر البرد، ولمّا بلغنا درج الجبل وانتحينا طريقه من السّفح، وهي تركب ضفّة الوادي الملتفّ بعادي شجر الحور والطّرفاء وشجر الخلاف

---

(1) الأبيات في : المصدر نفسه : 44.

(2) أي انطلق منه الفتح إلى الأندلس ، ومن هنا يكون مجيئه إلى هذا المكان أملا في الانطلاق ثانية إلى غرناطة.

(3) نفاضة الجراب: 45.

(4) المصدر نفسه: 45.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

والدّردار، وأمعنّا وكابدنا عنتا في اقتحام الوادي ذي الجرية الكثيرة الصّبب، المسوقة المدّ، العظيمة التيّار، المجهولة المخاض، ونقتحم منه أزرق شفافا عن الحصباء، كثير الجلبات، أملس الصّفاح، لذاع البرد، عبرناه نحوا من ثلاثين مرّة في أماكن يتخلّلها الدَّوح ويعظم الرَّيع، وتحصر الحرباء، وتسمو عن جانبها الجبال الشمّ، والشّعبات الّتي تُزلّ بها العُصم، وتُفضي دروبه إلى أقوار فسيحة، وأجواء رحيبة، يكتنفها العمران ويموج بها السّنبل»[1]

ويصف المتاعب التي لقيها، بعد ذلك يصف معيشة شيوخ قبيلة هنتاتة وأنواع المآكل والمشارب قائلا:

«... ولم يكد يقرّ القرار، ولا تنزع الخفاف، حتّى غمر من الطّعام البحر، وطما الموج، ووقع البهت، وأمِّل الطَّحو[2]، ما بين قصاع الشّيزى أفعمها الثُّرْد، وهيل بها السّمن، وتراكبت عليها لصمان الحملان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولي القوّة، غاصة من الآنية بالمُذْهَب والمُحكم، مهدية كلّ مختلف الشّكل، لذيذ الطّعم، مُهان فيه عزيز النّابل، محترم عنده سيّدة الأحامرة الثّلاثة إلى السّمك الرّضراض والدّجاج فاضل أصناف الطّيار، ثمّ تتلوها صحون نحاسيّة تشتمل على طعام خاصّ من الطّير والكُبّاب واللّقالق...، وقد قام السّماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهدّبتهم الدُّربة، فخفّت منهم الحركة وسكنت الأصوات...»[3]

بعد هذا الوصف الطّريف يصل إلى وصف المكان الّذي توفيّ فيه أبو الحسن المريني فيقول:

«...ومن الغد كان التّوجّه إلى ذلك المحلّ المبارك، فاقتحمنا وعراً نزل فيه الدُّر، ولا يسلكه مع الحلم الطّيف، وتسنّمنا شعاباً تعجز عنها العُصم، وتجاوزنا مهاوى مدّت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضّرورة الفادحة، فتقطع عمّن وراءها الآمال، إلى أن أفضينا و لم نكد إلى المحلّ المقصود وهي دار قوراء نبيهة البنية بالنّسبة إلى جنسها...ساذجة بادية ملطّخة الجدران بالطّين الأحمر، متقابلة الأشكال بيوتها، لا طيّة السّقف غير مهذّبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال[4] مستعل على أرجل متّخذة من اللّبن، والحجر مُلبَّس بالطّين،

---

[1] المصدر السابق: 46.
[2] أي الانبساط والامتلاء.
[3] نفاضة الجراب: 47.
[4] المقصود بالبرطال أو البرطل: المدخل.
- ينظر نفاضة الجراب: 49.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

والبيت حيث متوفّى السّلطان مفترش بالحصباء، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثّرى، وتمكّن من تربته من يقصد شفاء المرضى وكحل العيون المرهى، إذ كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة، لم تعرف الخبائث، ولا آثرت الملاذ، مُعْنِياً في برّ والديه مصرّفاً في انتساخ الذّكر الحكيم يُمْنَى يديه، محافظاً على الصّلاة قَيُّوماً عليها باللّيل، كثير الصّدقة والصّوم، مجالسا للعلماء، مستكشفاً أحوال الرّعايا، حانياً على الضّعفاء، معملاً في سبيل الله بيض الظّبا، صابراً على اللأواء، محتسبا في البلوى، مستشعراً شعار التّقوى، ألحقه الله بالرّفيق الأعلى...»[1]

إذا فالمكان الّذي توفيّ فيه أبو الحسن المريني مكان موحش ومقفر، يذهب إليه مرضى العيون من أجل التّبرّك بتربته الطّاهرة، لأنّه في اعتقادهم كان رجلاً مؤمناً وصادقاً، ومحافظاً على صلواته، وبرّاً بوالديه، هنا نلمس بعض المعتقدات التّي كانت سائدة، ولا تزال إلى وقتنا، كزيارة قبور الأولياء والتّبرّك بتربتهم... ثم ينتقل إلى مدينة "أغمات" و"ريكة"[2] قائلاً:

« وانحدرنا من الغد إلى مدينة أغمات وريكة عن درج نزلناه لجرّاه عن الظّهر، وقدنا الدّواب قوداً، فجازت ناجية عن صراط بعد سياط ومياط، واجتزنا على ديار هنتاتة بذلك السّفح على حدود أضدادهم الوريكيين، وقد أسهلوا وانبسطوا، ومثلت لهم الديار الحمر، تحفّ بها البساتين الخضر، تخترقها المذانب الزّرق. وأرحنا من تلك الجهة بالمسجد البديع الحافل البنية، السّامي المئذنة، المقام لصق دار موسى بن علي الهنتاتي، البادي طللها، المنبّئة عن أخبارها آثارها، توسعه ما شاء من ثناء ورحمة.

ثمّ أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل موطّأٍ لا نشز فيه ينال جميعه السّقي الرّغد، وتركبه الخلجان وقد تموّج به العشب، وعافته الأيدي وغلّت أيدي فلاحه الفتنة.

وهذه المدينة قد اختطّت في الفضاء الأفْيَح، فبلغت الغاية من رحب السّاحة وانفساح القورة، مثّلت قصبتها منها قبله، وسورها مُحْمرُّ التُّرب، سجحُ الجِلْدة، مُنْدمِلُ الخندق، يخترقها واديان اثنان من ذوْب الثّلج وسور الجبل، قامت بضفّتيها الأرحاء واردة وصادرة، مرفوعة الأسداء، منيعة البناء، يمرّ أحدهما بشرقيْ المسجد الجامع طامي العباب محكم الجسور، نظيف الحّافة، نزهة للأبصار،

---

[1] نفاضة الجراب: 49.

[2] تقع مدينة أغمات في جنوب مدينة مراكش على سفوح جبال مدينة أطلس.

– ينظر، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين البغدادي،1 : 98.

– ينظر كذلك، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي،1: 226.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وعبرة لأعين النّظار، ومسجدها المذكور عتيق عادي كبير السّاحة، رحيب الكنف متجدّد الألقاب، ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض. أسّسها أولوهم[1] مربّعة الشّكل ومازالوا يبخسون الذّرع، ويجحدون العرض، حتّى صارت مجسّماً كاد يجتمع في زاوية المخروط، وأدير عليه فارز من الخشب يطيف ببناء لاط، وقد أطلّ سامي جامورها[2] فوقه، فقبُحت حتّى ملُحت واستحقّت الشّهرة والغرابة .» [3]

يصف مدينة أغمات وطبيعة موقعها، وانفساح أرجائها، ويصف قصبتها وسورها ومسجدها الفخم، وهو نصّ عظيم الأهمّية من النّاحية المعماريّة الأثريّة.

وبعد الحديث عن محاسن هذه المدينة تكلّم عن سذاجة أهلها « وأهل هذه البلدة يُنسب إليهم نوك وغفلة عِلّتُها، إن صدقت الأخبار، سلامة وسذاجة فتعمُرُ بملحهم الأسمار، وتتجمّل بنوادر حكاياتهم الأخبار...»[4]

فنعتَ أهل هذه المدينة بالحمق والغفلة والسّذاجة المشفوعة بالطيبة، ثمّ يذكر أنّ خطيب مسجدها قد حدّثه بأخبار من اعتُقِل بها من ملوك الأندلس « كالمعتمد بن عبّاد، ...[5]»

وفي أغمات زار ابن الخطيب قبر "المعتمد بن عبّاد": « وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عبّاد، أمير حمص وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربيّ رحمه الله، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد، قد تَوَقل[6] نشزاً غير سام وإلى جانبه قبر الحرّة حظيته وسكن نفسه اعتماد إشراكاً لاسمها في حروف لقبه، المنسوبة إلى رُميك مولاها، المتولّعة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجداث من ولدهما...»[7]

لقد جرت عادة المسلمين في الأندلس أن يشبِّهوا بعض مدنها بأسماء المدن الشّرقيّة، فسمّوا غرناطة دمشق، لهذا قال زرت قبر المعتمد بن عبّاد، أمير حمص يقصد أمير إشبيلية[8] والقبر موجود خارج أغمات في نشز من الأرض، والقبر يقع

---

(1) ينظر حاشية التشوف إلى رجال التصوف، لابن الزيّات: 84.
(2) جامور: معناها عامود في أعلى البناء.
(3) نفاضة الجراب: 55.
(4) المصدر نفسه : 55.
(5) المصدر نفسه :56.
(6) توقل: صعد وارتفع.
(7) نفاضة الجراب: 57.
(8) حاشية نفاضة الجراب: 57.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

يقع في بقعة موحشة تتخلّلها الأشواك البريّة، وقد أصبح عبارة عن كومة من الأحجار المكدّسة ومن حوله سور قديم متهدّم[1].

وقصد ابن الخطيب بعد ذلك مراكش فوصفها بقوله: « وكان الانصراف عنها من الغد، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار، تساوقها جَرِيّاتِ الأنهار، تتخلّلها أطلال الحِلل والدِّيار نيِّفا على شطر البريد لا تنال صفح ثراه الشّمس ولا ترتاده الحرباء، تتجاوب أصوات الحمام المطوّق فوق غصونه. وقد اقتطعت ذلك الجناب الخصيب أيدي الوحشة، وأخيفت من حلل غابه السّابلة، وسكن ربوعه الآهلة البوم...»[2].

بعد ذلك كان الخروج منها يوم الأحد الثّالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة 761هـ:

« وكان السّفر من مراكش يوم الأحد الثّالث والعشرين من جمادى الآخرة وقصدنا باب الرّخا من أبوابها غلساً لنصابح تربة الشّيخ، قصد التّزوّد ببركتها، فتعذّر فتح الباب وطال به الوقوف وأعْيَيَ علاجه، فانصرفنا عنه...، واستقبلنا حيّ بني الحارث من عرب العمود، جذوة شرار الشّرار أولى الحِرابة والخرابة. فنزلنا بمحلّة من حِلل رِعاء البَهم وقد أوقع في طريقنا يومئذ بمحروبين حار أحدهما ونجا ثانيه برأس طِمِرَّة ولجام.

ورحلنا من الغد في قفر تنذر ببعض مهامه به أبيات نابية للمُسَمَّيْن، وبتنا بحِلّة من حُلل بني جابر أولى إبل وشاء. ورحلنا من الغد فتجاوزنا غولاً، وتخطّينا مَظنّة اعتراض، ومَسْبَعة فُسَّاق في حدِّ بين بلاد بني حارث، وبني وراء، يُولى كلٌّ منهم خُطّة الملام جاره عند إعداء الرُّفُق المصابة، وإصراخ السّلطان لندائهم.

ودخلنا بلاد بني ماقر، فكان المبيت بسورها تحت خصب وأمَنة، ومنها صرفنا من صحب من أشياخ تلك الأرض عن شكر وإطراء، وإن كنّا في مظنّة الرّوْع نرى منهم اخزرارَ عيون ومخايلَ فتنة.

ومن الغد سلكنا وطن بني ماقر وهو كثير العمران، متعدّد الدّيار والأشجار سَقْيُه من نطاف عذبة تَختزن بها بركات الأمطار فيقع بها أمنُهم و الاجتزاء إلى زمن المطر. وبها كثير من الصّالحين وأولى الخير وأرباب التّلاوة. » [3]

---

(1) حاشية لسان الدّين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري: 67.
(2) نفاضة الجراب: 58.
(3) المصدر السابق: 69.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

عند خروجه من مرّاكش اخترق في طريقه ديار بني الحارث، وبني جابر اللذين وصفهما بالخراب والقفر، ليدخل وطن بني ماقر الكثير العمران، والمتعدّد الأشجار والديار؛ فوصل إلى مدينة آسفي فقال عنها:

« ووردنا مدينة آسفي وقد تمكّن النّهار، فلقينا موكب أرباب الخطط بارّين معدين، ولمّا شارفنا، ركب إلينا صردوكها أحمد بن يوسف حفيد الوليّ أبي محمد صالح، القائم في ظلّ صيته، وأثير النّاس من أجله، رجل أدَمُ اللّون، ... خاطبته بين يدي قدومي بقولي:

أبقاك الله مثابة انتفاع ونوراً بأعلى يفاع، ومتّضعاً على علوّ ارتفاع، ترى الوتر في إشفاع، وتقابل الوهم بطرادٍ من الحقيقة ودفاع، إن حنّت على لقاء الأعلام شهرتهم فلك الشّهرة، وأنت العلم والشّهاب الذي تُجلى به الظُّلم، ورباط جدِّك بالمغرب الركن المستلم، فإلى أين يذهب عن جنابك الذّاهب، وقد وضحت المذاهب، والله المانع والواهب. وجئنا إلى رباط الشّيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة. فضاؤه رحْبٌ مرصوف بحجر الكذان يدور به، سقيف نظيف ذو أبواب تفضي إلى زوايا ومدافن...»[1]

عندما وصل إلى مدينة آسفي، استقبله زعيمها أحمد بن يوسف حفيد الوليّ أبي محمد صالح، وكان رجلاً صالحاً، وقد خاطبه بخطاب بليغ يشيد بخصاله وخصال جدّه الولي، ثمّ ذهب إلى رباط الشّيخ أبي محمد، وهو من المشاهد الحافلة؛ لينتقل بعد ذلك للحديث عن آسفي فوصفها بقوله:

« وانصرفنا إلى المحل المعيّن للنّزول؛ وهذا البلد فسيح طيّب الهواء كريم التّربة خصيب الجناب. وأهله أولو خيْريَّة وجنوح إلى الصّلاح؛ وهو لبِنَة التّمام للمسَوّرات بالمغرب، ليس وراءها مدينة جامعة، ولا محلَّةٌ مسورة، ودونه أمم تتّصل بالسوس الأقصى إلى تخوم الحبشة من وراء الصّحراء.

... وصلّينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق، ومجمع فسيح متعدّد الزّيادات والصّحون والتّعاريج، سبق منه ما بين يدي المحراب بعضٌ على أيدي قوم من الصّالحين، رفعوا به عُمُداً تناهز الأربعين، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسّذاجة يباشرها سقف لاطئ من غير نقش ولا إحكام، عَلَتْها خُشُبٌ بالية، وقُضُبٌ ناخرة، بما يدّل على قِدَم العهد، ويُنْبئُ على اجتناب فضول العمل. فلم تمتد إلى تغييرها يد، ودارت بها الزّيادة النّبيهة والبلاطات من جهاته، وبصحن

---

[1] المصدر السابق: 71.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

هذا المسجد جِبابٌ للماء ينتابها النّاس لسقيهم و وضوئهم فَيَحْسِبُهُم[1]. ويقابل القبلة من جوفي الصّحن زاوية بها فقراء يدعون ذكراً لله، فَيُعَاطَوْن مقام التّوكّل، فلا يُغَبُّ عنهم التّفقّد.

وبهذه البلدة، المدرسة والمارستان، وعليها مسحةٌ من قبول الله. وهواؤها أطيب أهوية البلدان...»[2].

يصف مدينة آسفي بأنّها فسيحة الأرجاء، هواؤها طيّب، وتربتها خصبة، ويوجد بها مسجد جامع، وهو عبارة عن مبنى عتيق، بصحنه يوجد مكان للوضوء، وبهذه البلدة أيضا هناك المدرسة والمارستان ؛ ويؤكّد مرّة أخرى أنّ هواءها أطيب أهوية البلدان.

وبعد مدينة آسفي انتقل إلى سور موسى من جامع دكالة[3] يقول:

« ثمّ سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكّالة، وهو حَلْق ذو شرفات وأبراج، بادي الانثلام والتّشعيث غير حرز الغلق لجهل هذه الأمّة المُصْحِرة بالتّحصين، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل الوطن المتكاثف العمارة، الجمّ الماشية، المنبثُّ الحِلل، الغاصُّ على انفساح مداه بالرّاغية والثّاغية والصّاهلة والنّاهقة، البالغ عدد أزواجه لإثارة الأرض ومعالجة الحرث، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثّيران تثير أرضه وتعالج حرثه، يتحرّم به عند الغارة الشّعراء المُصْمَئِلّة يطرقهم بها عدوُّهم من بني الحارث وأحلافهم من سكّان السّهل والجبل فَيَسُدُّ عندها. وعلى ذلك فهم لحم على وضم، ولقمة بين لَحْيَيْن، وبخارجه سوق جامعة يُحشر إليها النّاس ضحى، ويتقاطرون من كلّ مرمىً يمثلون في صعيد واحد، قد خيّمت تجّارهم و ظلّوا، ولا ينفضُّ الجمع إلاّ مع انقضاء بياض يوم»[4].

أخبرنا عن سور موسى بأنّه حلق ذو شرفات وأبراج، وعندهم ثروة حيوانيّة هائلة، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثّيران تقوم بحرث الأرض؛ ثمّ يواصل ابن الخطيب وصف رحلته بقوله:

---

(1) أي يكفيهم.
(2) نفاضة الجراب: 72.
(3) دكالة اسم لقبيلة بربرية وولاية من ولايات المغرب الأقصى، يحدها من الشمال والغرب المحيط الأطلنطي، ومن الشرق نهر أم الربيع، ومن الجنوب ولاية مراكش.
- ينظر نفاضة الجراب :74.
(4) المصدر السابق: 74.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

« ورحلنا من الغد في سهل اقتحمنا به حدود الصّناهجة[1]، وبتنا بموضع يعرف باسكاون بإزاء رَجَلٍ مُنْتمٍ للصّوفيّة أعجم اللّسان، قام بالنّزول على خصاصة واضطرار، فأنبنا له واحتسبنا كدحه.

وعدنا من الغد إلى أزمّور، فرأينا صدق المثل في قولهم العود أحمد، فتلقّينا بها أصناف الفضلاء مصحرين، ولوظائف البرّ متمّمين، وقاهم الله معرّات السّنين، وكرّم وجوههم يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه في يوم العرض والدين»[2]

لقد تحدث عن أزمور وبعض رجالها في أماكن متفرقة، فكان الحديث مبنيّا على التقدير والمدح والثناء.

كذلك يستفاد من كلامه عن المدينة أنها إلى عهده حاضرة دكالة جميعا، وأن دكالة كانت تذكر بمدينة أزمور باعتبارها المركز الحضاري الأكثر أهمية؛ ويتبيّن ذلك في قوله: « وعدنا من الغد إلى أزمور، فرأينا صدق المثل في قولهم العودأحمد»[3].

وكان السفر«إلى مدينة "آنفا "، واستدرك استدعاءنا منهم إلى كل احتفاء واحتفال، أفاضل ذهبوا من البر كلّ مذهب ...»[4]

وأخيرا يصل إلى مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلسي حيث استقر به المقام في ضاحيتها المعروفة باسم شالة يقول:

« ثم كان الارتحال إلى التربة المولوية المحترمة بشالة، فألقيت بها البرك، وحططت الرّحل، وفصلت الخطة»[5]

والتربة التي يشير إليها ابن الخطيب، هي قبر أبي الحسن المريني، وكانت هذه الزيارة لضريح أبي الحسن المريني، موضوع رسالة مؤثرة وجهها ابن الخطيب إلى ولده أبي سالم [6].

---

(1) ينظر: معجم البلدان، شهاب الدين الحموي، م1 : 368.
(2) نفاضة الجراب : 78.
(3) المصدر نفسه: 78.
(4) المصدر السابق: 79.
(5) المصدر نفسه: 81.
(6) ينظر : الفصل الثاني ،المبحث الأول.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

إن رحلة ابن الخطيب، كما اتضح مما سبق، مصدر مهم حافل بالقضايا الجغرافية، والحضارية، والاقتصادية، والإثنوغرافية.

- **الجغرافية:**

لقد احتوت الرحلة إشارات جغرافية كثيرة تتعلّق بتحديد المكان، من حيث وجود الجبال أو السهول والصحاري والأنهار، وقربه أو بعده عن البحر، إضافة إلى إشارات تتعلق بطبيعة الطرق الموصلة إلى الأماكن من حيث وعورتها وسهولتها، « كابدنا عنتا في اقتحام الوادي ذي الجرية الكثيرة الصبب »[1]، « فاقتحمنا وعرا نزل فيه الدُّر، ولا يسلكه مع الحلم الطيف»[2] إلى جانب تحديد المسافات بين الأماكن، بحيث يمكن استنتاج ذلك من خلال ذكره لوقت مغادرة مكان ما ووقت الوصول إلى المكان التالي، وفوق هذا ثمة إشارات كثيرة إلى طبيعة المناخ من حيث شدة الحرارة أو اعتدالها، وطيب الهواء، وكثرة الرياح، وكثرة الأمطار أو قلتها، ويشتمل أيضا طبيعة النباتات والحيوانات من حيث النوع والأعداد في الأماكن التي زارها.

فتحدث عن طيب هواء آسفي: « هذا البلد فسيح، طيب الهواء، كريم التربة، خصيب الجناب»[3] واعتبر هواءها أطيب أهوية البلدان: « وهواؤها أطيب أهوية البلدان »[4]

ودقة الكاتب في وصف الطريق صعودا إلى جبل هنتاتة، توحي أنَّ الكاتب كان يسجل ملاحظاته هذه في أثناء مسيره في تلك المسالك، ولحظة رؤيته تلك الأماكن؛ فهو يصف كيفية الصعود إلى الجبل من السفح بمحاذاة ضفة الوادي الملتف بشجر الحور والطرفاء والدردار، ويبين كيف أنهم كانوا في مسيرهم يضطرون لاقتحام الوادي، ذي التيار القوي[5] أكثر من ثلاثين مرّة[6]، وفي مسالك يصعب على الوعول سلوكها، أما طريق مزار الحسن المريني فكان أيضا وعرا كثير المنزلقات، يمرّ عبر شعاب صعبة المجاز، وللوصول إلى ذلك المزار كان

(1) نفاضة الجراب: 45.
(2) المصدر نفسه: 48.
(3) المصدر نفسه:71.
(4) المصدر نفسه: 72.
(5) المصدر السابق: 45.
(6) المصدر نفسه: 46.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

عليهم أن يسيروا على ألواح من الخشب ترتفع عند الضرورة « فتقطع عمن وراءها الآمال»[1].

- **التاريخ والقيم الحضارية:**

أورد الكاتب في رحلته العديد من الإشارات والأوصاف لمعالم حضارية في الأماكن التي زارها كالأسوار والحصون والأبنية العامة والخاصة والمساجد، والمزارات، كذلك وردت إشارات تاريخية إلى حكام تلك الأماكن، وإلى من يسكنها من المشاهير؛ فالأسوار التي قلما خلت مدينة لأهميتها منها، كانت مرتكز نظر ابن الخطيب، فمثلا سور أغمات كان من الطين الأحمر، لكن خندقها كان مندملا مما يدل على أنه كان قد أصابه الإهمال، « وسورها محمرُّ التُّرب، سَحِجُ الجِلدة، مُندمل الخندق»[2] كذلك سور موسى قد أصابه الانثلام والتشعيب، وعلى الرغم من « أنّه حلق ذو شرفات وأبراج»[3] فإنه غير حصين لجهل أهل تلك المنطقة القريبة من الصحراء بالحصون وبنائها.

أما المسجد فكان ركنا أساسيا في المدينة الإسلامية، فقد كان أوّل ما يختط عند بناء المدينة الإسلامية، وبناء المساجد والحفاظ عليها من الأمور التي يقبل المسلمون على عملها تقربا إلى الله تعالى، ولذلك كثرت المساجد في المدن الإسلامية، وظلت المحافظة عليها وتجديدها وترميمها من مهمات الحكام والمحسنين من المسلمين، ومن هنا كانت عظمة المسجد دالة على عظمة المدينة وازدهارها.

وقد ذكر لسان الدين العديد من المساجد في مدن مختلفة ووصف أحوالها، ففي جبل هنتاتة زار مسجد الأمام المهدي ودار سكناه وبقايا مدرسته وسجنه، وكان قد وجده مسجدا متواضع البناء، قميء المنبر، ولا تبدو على خشبه آثار الصنعة، كما أن خشبه لم يكن من الأخشاب الفاخرة كالصندل والأبنوس الحبشي مثلا[4]، ولعلّ هذا راجع إلى أن الموحدين لم يكونوا يهتمون بزخرف الحياة ورغدها، ويبدو أن دعوتهم إلى العودة إلى أصول الدين الأولى صحبتها دعوة إلى بساطة العيش، خاصة أنهم قوم أتوا من أعماق الصحراء؛ ويذكر المؤلف كذلك مساجد آسفي وصلاته في مسجدها الجامع[5]، ومن أطرف ما ذكره عنها،

---

(1) المصدر نفسه: 48.
(2) المصدر نفسه: 55.
(3) المصدر نفسه: 74.
(4) المصدر السابق: 50.
(5) المصدر نفسه: 72.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

حديثه عن مسجد أغمات ومئذنته، فيذكر أنه مسجد عتيق رحب، وأن مئذنته فريدة نوعها، وذلك لأنها تأسست مربعة الشكل في البداية، لكن من بنوها ظلوا ينقصون في طولها وعرضها حتى أصبحت مخروطية الشكل يحيط بها فارز خشبي ويعلوها عمود[1]، ولاشك أن لهذا الوصف قيمة كبيرة وأهمية عظيمة من الناحيتين التاريخية والمعمارية.

وقد وصل المؤلف في دقة وصفه لمقام أبي الحسن المريني الغاية القصوى، إذ وصفه بأنه « دار قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى جنسها... ساذجة ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال، بيوتها لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال مستعل على أرجل من اللبن، والحجر مُلبَّس بالطين، والبيت حيث توفي السلطان مفترش بالحصباء، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى»[2]

إن هذا الوصف يثير أمورا عديدة، إنه يذكر هندسة البناء وشكله، ومادّة البناء وصنعه، إذ لم يكن بناءً فخما ولا استخدمت المواد الثمينة في بنائه، إنه مبني من الحجر والطين والأخشاب غير المهذبة، أما أرضه فهي مفترشة بالحصى غير مبلطة كما قد يكون الأمر في أماكن أخرى؛ وفوق هذا فقد تحول المكان إلى مزار ديني، يزوره المرضى، وفي هذا إشارة تاريخية إلى تفشي الخرافات في ذلك الزمان.

وقد حرص ابن الخطيب على ذكر المباني السكنية والقصور الخاصة في بعض المدن، فلسلطان أغمات دور حافلة تدل على علو همته، لكن الخراب قد أصاب تلك الدور، وهو يعزو هذا الخراب إلى الإهمال وكثرة الفتن « أوحش عمرانها لتتابع الفتن»[3]

وعلى الرغم من الدلالات التاريخية المتعددة لما ذكره من عمائر، فإنه يذكر فضلا عن ذلك طرفا من تاريخ بعض المدن، أو يذكر أحداثا تاريخية معينة ترتبط بمدينة معينة، وقد أشاد حسين مؤنس[4] برحلة ابن الخطيب ورأى فيها قيمة خاصة بالنسبة لمن يدرسون تاريخ المدن في عالمنا الإسلامي، وهذه القيمة تتجلى حول مشروع إنشاء مدينة، والأسباب التي حفزت الناس على العمل على إنشائها

---

[1] المصدر نفسه: 55.
[2] المصدر السابق: 48 49.
[3] المصدر نفسه :56.
[4] تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: 595.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ولماذا استجاب السلطان لرغبتهم، والقواعد التي ساروا عليها في اختيار موضع المدينة، وأن المدينة لم يتم إنشاؤها بسبب موت السلطان أبي عنان المريني الذي فكر في اختطاطها، وهذه في ذاتها حقيقة تتعلق بتاريخ المدن، وهي أنها كانت في أحيان كثيرة تقوم وتختفي تبعا لرغبات السلاطين، يشير ابن الخطيب إلى هذه الحقيقة التاريخية بقوله: « وقد كان رفع إلى السلطان المُغْرَى بالبناء وتخليد الآثار أبي عنان، رحمه الله، خبرُ ما عليه الناس من إخافة عدوهم، واهتضام عَرْصَتهم، واستهداف عَقْوَتِهم[1]، فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة، فاختير على غَلوات منهم، محلُّ أرضه صخر منطبق على تراب،... فشرع في البناء واستُبعد الفضاء، ومثلت الأبواب العديدة، والأبراج المشيدة، وعاق عن إتمامها هجوم حِمامه وانصرام أيامه، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته»[2].

- **الإثنوغرافيا:**

الإثنوغرافيا فرع من فروع علم الأنثروبولوجيا، وهو علم وصفي، يصف أسلوب الحياة والعيش ومجموعة العادات والتقاليد والقيم والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة في مكان وزمان معينين[3]، وكما يرى حسين فهيم[4] فإن موضوع الإثنوغرافيا يتعلق بوصف طبائع البلدان، وخصال أهلها وأسلوب حياتهم، حسب المصطلحات المتداولة في كتب التراث العربي، ومن هنا كانت الأطعمة وأنواعها وطرق طهيها وتقديمها وتناولها موضوعا من موضوعات الإثنوغرافية، كما يدخل في موضوعاتها أساليب سلوك الناس بعضهم مع بعض، من ناحية، ومع الغريب عنهم من ناحية أخرى، كذلك تدخل الهدية وأنواعها وأساليب التهادي في هذا الباب، وقد كانت كتابات الرحالة المسلمين، زاخرة بالأبعاد الإثنوغرافية، من خلال تسجيلهم لمشاهداتهم في البلدان التي زاروها، ولا يشذ لسان الدين عنهم في هذا الأمر، فقد احتوت الرحلة أمورا كثيرة تتعلق بطبائع الناس، وأطعمتهم وعاداتهم في الأماكن التي زارها، وكذا لغاتهم، فهو يذكر أن أهل أزمور كان لسانهم بربريا ووصفهم بالعجمة لأنه لم يكن يعرفه[5] ،أما النوك والحمق والغفلة فقد ذكر ابن الخطيب أنها تنسب إلى أهل أغمات قائلا:

---

(1) العقوة : الساحة والمحلة .
(2) نفاضة الجراب: 74 75.
(3) أدب الرحلات، حسين محمد فهيم: 43 44.
(4) المرجع نفسه: 44.
(5) نفاضة الجراب: 78.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

« وأهل هذه البلدة يُنسب إليهم نوك وغفلة، عِلّتُها إن صدقت الأخبار، سلامة وسذاجة، فتعمُرُ بملحهم الأسمار، وتتجمّل بنوادر حكاياتهم الأخبار...»[1] ويذكر المؤلف عنهم أنهم استأذنوا ملك المغرب عند زيارته لمدينتهم وإعجابه بمئذنة مسجد بلدتهم الفريدة في نوعها، في نقلها إلى بلده على سبيل الهدية ليجعلوها تحفة قدومه، وطرفة وفادته[2] .

ولقد أشار أيضا إلى الطعام، وبخاصة في أثناء زيارته لجبل هنتاتة وحلوله ضيفا على عبد العزيز بن محمد الهنتاتي، أخي عامر بن محمد الهنتاتي شيخ هنتاتة، ومن المعروف أن الطعام ليس مجرد وسيلة للتغذية، والإبقاء على الحياة، بل إن الطعام وطرق طهيه وتقديمه وتناوله مرتبط بالبيئة والاقتصاد والدين والعادات والتقاليد، ونادرا ما أغفل الرحالة المسلمون، أو غير المسلمين، الحديث عن الطعام، فيما سجلوا من مشاهدات، وبذلك يمكن أن تكون ملاحظاتهم مصدرا غنيا للمعلومات عن أوجه الحياة المختلفة[3]، وهذا ما نلاحظه فيما سجله ابن الخطيب في هذا الصدد، فبعد وصفه للخيمة الكبيرة ذات النقوش البديعة والصناعة الفاخرة، المؤثثة بلحف الحرير ومساند الوشي والجلد المزعفر، وهي الخيمة التي استضافه فيها عبد العزيز الهنتاتي، يصف بدقة وتفصيل ما قدم من طعام، من حيث أنواعه المختلفة والأواني التي قدم بها، فكانت قصاع الثريد الكبيرة، المغمورة بالسمن تعلوها الحملان، في آنية مذهبة فيها كل لذيذ الطعم ومختلف الشكل، ثم جاءتهم آنية نحاسية فيها طعام خاص من الطير والكُبّاب واللقالق، ومن ثم أحضرت أصناف الحلوى والفاكهة، وكان يقوم على خدمتهم خدّام «أخذتهم الآداب وهذبتهم الدربة، فخفت منهم الحركة، وسكنت الأصوات»[4].

ثم يصف مجلس السمر حيث جلسوا على ضوء الشموع المتلألئة فوق منصات نحاسية، حيث قدم لهم الطعام مرّة أخرى، وكذلك توالت أصناف الحلوى.

إن وصف ابن الخطيب لمائدة عبد العزيز الهنتاتي، له قيمة تاريخية واجتماعية واقتصادية، كما أنه يعبر عن البذخ الذي كان يعم بلاط السلاطين ومجالس الرؤساء والزعماء، ولاشك في أن هذا كان مقصورا على هذه الفئة أو الطبقة، إذ لا يمكن أن يكون ميسورا لعامة الناس، ولا شك أن مثل هذا البذخ كان يباعد في أحيان كثيرة بين الحكام والمحكومين.

---

(1) المصدر نفسه: 55.
(2) المصدر نفسه: 55.
(3) أدب الرحلات: 143.
(4) نفاضة الجراب: 47.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- **الموروث الثقافي:**

ويضمن لسان الدين بن الخطيب رحلته عبارات وإشارات من الموروث الثقافي العام، ومن ذلك إيراده للمثل: « فهم لحم على وضم»[1]، وكذلك قوله: «العود أحمد »[2].

فهو يستخدم المثل بطريقة فنية في تأليف الكلام يضفي عليه رونقا وبهاء، ويكسبه قوة ومتانة، وتدل أيضا على عمق ثقافة لسان الدين وتفننه في التصرف بالألفاظ والتعابير.

(1) النفاضة: 74 ، وينظر النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، 5 : 198 199.
(2) النفاضة :78، وينظر مجمع الأمثال، الميداني: 392.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

بعد هذه الدراسة لمضامين الرحلة وما فيها من أبعاد تاريخية واقتصادية واجتماعية، نقف عند أهم الظواهر الفنية البارزة في أسلوب الرحلة وهي:

- **الاقتباس**:

« هو تضمين النثر أو الشعر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما»[1]، ولعلّ سبب إطلاق هذه التسمية على هذا النوع من المحسنات اللفظية، راجع إلى قداسة المقتبس منه وهو القرآن الكريم؛ « فالقبسُ شعلةٌ من نارٍ تقتبس من معظم النار بقصد الهداية »[2].

وتأتي الاقتباسات من القرآن الكريم إما مباشرة أي أن يكون على مستوى الآيات أو يكون على مستوى المعاني والألفاظ.

ولسان الدين بن الخطيب في رحلته يقتبس من هذا المصدر الرباني آيات يؤيد بها آراءه، ومن ذلك أنه استشهد بقوله تعالى: « إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»[3]، وقوله تعالى :« يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ»[4]، وقوله تعالى: « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ »[5].

وهو كما يقتبس النص القرآني بلفظه فإنه في بعض الأحيان يقتبس معاني القرآن من مثل ما جاء في قوله :« مُطْمئِن القَلْب بذكر الله»[6] وهو تضمين لقوله تعالى: « ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ»[7].

ومما جاء في الرحلة كذلك قوله: « فهو الذي يؤاخذ بما كسبت الأيدي ويعفو عن كثير»[8] وهو تضمين لقوله تعالى: « يُؤَاخِذُكُم بِما كَسَبَت قُلُوبُكُم واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ»[9] وقوله أيضا: « وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ»[10].

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة، جمال الدين الخطيب القزويني: 575.
(2) القاموس المحيط، الفيروزآبادي:727.
(3) سورة الأعراف آية 127 ،128.
(4) سورة يس آية 27.
(5) سورة آل عمران آية 106.
(6) النفاضة: 70.
(7) سورة الرعد آية 28.
(8) النفاضة:77.
(9) سورة البقرة آية 225.
(10) سورة المائدة آية 15.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

والهدف من وراء ذلك هو الاستشهاد بالدرجة الأولى، فلسان الدين توخى تقوية أسلوبه ومعانيه بالاتكاء على أساليب القرآن الكريم ومعانيه.

- **التضمين**:

هو أن يضمن الكاتب كلامه شيئا من مشهور شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن الشاعر مشهورا[1]، فإن كان معروفا فلا يشترط التنبيه[2].

وجاء التضمين واضحا في رحلة ابن الخطيب، فهو يضمن نثره بدائع الشعر لغيره من الشعراء الكبار، ومن ذلك ما جاء في قوله: « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»[3]

وهنا تضمين لقول امرئ القيس:

قِفا نبْكِ من ذِكرى حَبيب و مَنْزِل ❁ بسِقطِ اللِوَى بين الدّخول فَحَومَل[4]

و قوله :

أليس قليلٌ نظرةً إن نظرتُها إليك ❁ وكلاً ليس منك قليـــــل[5]

فهذا البيت مأخوذ من قول يزيد بن الطثرية :

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها ❁ إليك وكلاً ليسَ منكِ قليـــــلُ[6]

- ظاهرة التنويع بين الشعر والنثر:

---

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، 2 : 84.
(2) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: 580.
(3) المصدر نفسه: 74.
(4) ديوان امرئ القيس: 110.
(5) النفاضة: 76.
(6) شعر يزيد بن الطثرية: 88.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فهو يميل إلى استخدام الشعر ضمن النثر فلقد مزج بين نثره وشعره، ومن ذلك ما جاء في الرحلة قوله:

تقول لي الأظعان والشوق في الحشا ❁ له الحكم يمضي بين ناه و آمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارغـا ❁ فخيم قرير العين في دار عامر
وَزُرْ تربها المعصوم إن مزارهـا ❁ هو الحجّ يمضي نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمـد ❁ ثغور الأماني من ثنايا البشائر[1]

كذلك قوله :

يا حُسْنَها من أرْبُع وديـار ❁ أضحَتْ لباغي الأمن دارَ قرار
وجبال عز لا تَذِلُّ أنوفُهـا ❁ إلا لعز الواحـد القهـار
ومقر توحيدٍ و أسٌّ خلافـة ❁ آثارُها تُنبي عن الأخبـار
ما كنت أحسب أنَّ أنهارَ النَّدَى ❁ تجري بها في جملة الأنهـار
ما كنت أحسب أن أنوار الحِجا ❁ تلتاح في قُنَنٍ وفي أحجـار[2]

وقوله أيضا :

---

[1] النفاضة: 44.
[2] النفاضة: 52 ، ينظر أزهار الرياض، 1: 294 295.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ❁ رأيت ذلك من أولى المهماتِ
لم لا أزورُك يا أندى الملوك يدا ❁ ويا سراج الليالي المدْلهماتِ
وأنت مولًى تَخَطَّى الدهر مصرعه ❁ إلى حياتي أجادت فيه أبياتي[1]

وقوله أيضا :

إحسانكم يا بني يحي بن حسُّون ❁ أزرَى على كل منثور وموزون
قد جددت زينة الدنيا برامكةٌ ❁ منكم مكارمُها لم ترض بالدون
أبناء يحي وَقَتْهُم كلما وُلــدُوا ❁ عناية الله من موسى و هارون
بالأحسن الندب زاد الله بيتكم ❁ حُسنًا فأهلا بطلق الوجه ميمون
مازال يكلفُ بالعليا ويَمْحضُها ❁ هوى يعود على الأموال بالهون
ما زلتُ أسمع عنكم كل مكرمة ❁ والآن كم بين معلوم و مظنون[2]

وهو إذ يمزج بين نثره وشعره، يبين مقدرته الأدبية، ويغدو هذا المزج دلالة واضحة على براعة الكاتب واتساع ثقافته.

- **الاعتراض**:

لجأ لسان الدين بن الخطيب في رحلته إلى الجمل الاعتراضية كثيرا من ذلك قوله:

---

(1) المصدر نفسه: 57، وينظر ديوان لسان الدين بن الخطيب: 338، أزهار الرياض،1: 297.
(2) النفاضة: 79

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- أبقاك الله [1]، و رحمه الله [2]، و حفظ الله [3] ، و أصلحنا الله [4]، و أعزه الله [5]، و وقاهم الله [6]، و زادكم الله من فضله [7]، و كتب الله لكم بلوغ الأمل [8].

وهذه الجمل الاعتراضية كلّها تفيد الدعاء.

- **الأسلوب:**

وقد تنوعت أساليب أدباء القرن الثامن الهجري في الأندلس، فكان هناك الأسلوب المرسل[9] ، والذي يقوم على الطبع والموهبة، وفيه يترك الكاتب الكلام على سجيته، دون تكلّف فيجري حرّا طليقا، من غير القيود التي تضعها الزخرفة البديعية، وهناك الأسلوب المتوازن والمزدوج[10]، وهو أن تتعادل فيه الجمل في ألفاظها وتكون فواصلها على وزن صرفي واحد، على نحو السجع، غير أنه يختلف عن السجع بعدم تقيده بالقوافي ، والأسلوب المسجوع[11] وهو الكلام المقفّى، الذي فواصله على روي ّواحد، مثل فواصل الشعر ، إلا أنّها ساكنة الأعجاز، موقوف عليها.

وكان لسان الدين واحدا من أدباء عصره الذين ارتادوا الأساليب الفنية الثلاثة في بناء نصوصه الأدبية، إلا أنه كان يميل كثيرا إلى الأسلوب المسجوع، وما فيه من صنعة، من حيث اللغة، والتراكيب، ومن حيث الضروب البيانية والبديعية، لكن الرحلة جاءت بأسلوب مترسل يخلو إلى حد بعيد من السجع والمحسنات البديعية، فأسلوبها أسلوب عادي يتسم بطابع علمي مفيد، تغلب فيه المعلومات والحقائق الجغرافية.

---

(1) المصدر نفسه : 44 70.
(2) المصدر نفسه: 50 57 71 74.
(3) المصدر نفسه: 60.
(4) المصدر نفسه: 72.
(5) المصدر نفسه: 77.
(6) المصدر نفسه: 78.
(7) المصدر السابق: 84.
(8) المصدر نفسه: 87.
(9) ينظر النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب ، عبد الحليم حسين الهروط: 176.
(10) ينظر المرجع نفسه: 179.
(11) ينظر المرجع نفسه : 180.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فهي لوحة جميلة تضمنت كثيرا من الاقتباسات والإشارات التي تعكس ثقافة لسان الدين بن الخطيب وعظيم خبرته واطلاعه على العلوم العقلية والنقلية.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

خاتمة

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

خاتمة

إن أهم ما نشير إليه في هذه الخاتمة هو:

- أن لسان الدين وهو السياسي الأديب كان مثالا نادرا في عطائه السياسي إبان القرن الثامن الهجري، سواء في تسيير الدولة، أم في الدعوة إلى الجهاد ، وفي إبرام الهدن و العهود.

- استطاع أن يبدع نثرا كبيرا ومتنوعا، قد ضاع بعضه وتفرق بعضه الآخر في كتب مختلفة، فيه مظاهر من الإتباع ومظاهر أخرى من الابتداع في كل من المحتوى و الإطار.

- فنثره الديواني كان سجلا حافلا، ومرآة صادقة لأحداث عصره، حفظ تراث الأندلس الضخم في السياسة والفكر والتاريخ، فالكثير من رسائله الديوانية واكبت تلك الأحداث، وسجلتها في أكثر من موضع، كما أبانت عن كثير من الجوانب الاجتماعية، والثقافية السائدة آنذاك.

- كما استخدم الخطبة استخداما موجّها، فجعلها وسيلة من وسائل الحض على الجهاد، لذلك فإن التذكير بفضيلة الجهاد، وما أعدّه الله تعالى للمجاهدين، كان وسيلة من الوسائل التي ينشد من ورائها التأثير والإقناع، وقد تمتزج الصبغة الدينية في خطبه بالصبغة السياسية.

- أما وصيته فكانت جامعة و نافعة، أوصى أولاده بأمور متعلقة بالمعاش (الحث على طلب المعارف والعلوم، والدعوة إلى الأخلاق الكريمة، ووجوه تحصيل المال وصرفه، وطاعة ولي الأمر وعدم مخالفته، ومسألة تولي الوظائف)؛ وأخرى متعلقة بالمعاد (الدعوة إلى التدين، والتحذير من الدنيا، والحث على إقامة عمد الإسلام وفروضه).

- براعة ابن الخطيب في الوصف لاسيما وصف الأماكن، حيث صوّر جغرافية الأندلس والمغرب آنذاك تصويرا دقيقا بأسلوب مباشر، فيه جمالية أدبية متميزة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

- امتلاكه ناصية اللغة، حيث جاءت طيّعة يأخذ منها ما يريد، وكيف شاء، وقدرته على تعمّل السجع والتفنن في ضروبه.

- كذلك نجده مكثرا من الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، هذا ما أكسب نثره خصوصية إسلامية توشّح بها.

- ويمكن القول أخيرا إن ابن الخطيب كاتب الأندلس الأول في القرن الثامن الهجري، بما خلفه من تراث زاخر، يشمل المنظوم والمنثور، وبما تفتقت عنه قريحته من جميل المنظوم، ورائع المنثور، وهو القائل عن نفسه: « سلمان انتسابي، وبالمعارف الأدبية اكتسابي، وإلى العلوم قد نشأ ارتياحي، وفي حلبة أرباب النظر مغداي ومراحي، على نهاية من ترف النشأة وغر البدأة »[1]، وإن طريقته في الكتابة وإن كانت استمرارا لكتابات من سبقه من كتاب المشرق، وخاصة منهم بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري، والحريري في القرن الخامس الهجري، فقد كان أغزرهم مادة وأكثرهم تنوعا وأجودهم في تصوير مواقع الحرب، وأميلهم إلى الاهتمام بالجوانب التاريخية والسياسية، مما جعله يحتل مركز الصدارة في أدب العرب وتاريخ الإسلام.

- فهل تجود الأيام، فيما يستقبل من الزمان بمثل هذا الأديب البارع ؟

[1] أوصاف الناس في التواريخ والصلات: 134.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

قائمة المصادر والمراجع

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فهرس المصادر والمراجع

*القران الكريم (رواية ورش).

1. الإحاطة في اخبار غرناطة، لابن الخطيب،تح/ محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1983م.
2. الادب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، احمد هيكل، دار المعارف بمصر، ط5، 1970 م.
3. الادب الاندلسي والمغربي (ابحاث في الادب الاندلسي والمغربي)، محمد رضوان الداية، مطبعة خالد بن الوليد، 1981م.
4. ادب الرحلات، حسين محمد فهيم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، 1989 م.
5. ادب الرحلة عند العرب، حسني محمود حسين، دار الاندلس، للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط2، 1983م.
6. ادب السياسة والحرب في الاندلس، علي لغزيوي، مكتبة العارف، الرباط، المغرب، 1987م.
7. الادب العربي في الاندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1976م.
8. الادب العربي في الجاهلية والإسلام، عمر رضا كحالة، دمشق، 1972م.
9. الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، عباس الجراري، مكتبة المعارف، الرباط، 1979م.
10. ازهار الرياض في اخبار عياض، للمقرّي، تح/ مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م.
11. اساس البلاغة، الزمخشري، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998 م

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

12. الاعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1974م.
13. اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام، لابن الخطيب، تح/ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956م.
14. افاق النثر العربي واتجاهاته الخاصة في القرن الخامس الهجري، تاليف قدور إبراهيم عمار المهاجي، ط1، 2000م.
15. اوصاف الناس في التواريخ والصلات، ابن الخطيب، تح/ محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، 1977م.
16. الإيضاح في علوم البلاغة، جمال الدين الخطيب القزويني، تح/ محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط4، 1975م.
17. البستان في ذكر العلماء والاولياء بتلمسان"، لابن مريم، مطبعة التعالبية، الجزائر، 1908م
18. بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس، لابن عميرة الضبي، تح/ إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1989م.
19. البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشِي، تح/ ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1970م.
20. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، ط بيروت، 1963م.
21. تاج اللغة وصحاح العربية، الفارابي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1999 م
22. تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشروق، عمان 1997م.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

23. تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، حسين مؤنس، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1986م.
24. تاريخ قضاة الاندلس، لأبي الحسن النباهي، دار الافاق الجديد، بيروت، ط5، 1983م.
25. التشوف إلى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي، لابي يعقوب يوسف بن يحي التادلي (ابن الزيات)، تح/ احمد التوفيق، ط2، 1997م.
26. التعاريف، لعبد الرؤوف المناوي، تح/محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط1، 1410هـ.
27. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، تح/ عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة.
28. التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، لابن خلدون، تح/ محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م.
29. تهذيب اللغة، الازهري، تح/ عبد الحليم النجار، محمد علي النجار، القاهرة، 1964م.
30. جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، لابن القاضي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.
31. ابن الخطيب من خلال كتبه، لمحمد بن ابي بكر التطواني، تطوان، سنة 1959م.
32. دراسات في الادب الاندلسي، إحسان عبّاس، وداد القاضي، البير مطلق، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1976 م.
33. الدرر الكامنة في اعيان المائة التامنة، لابن حجر العسقلاني، تح/ محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
34. دولة الإسلام في الاندلس، عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م.
35. ديوان ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،1967م.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

36. ديوان امرئ القيس، تح/ محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5.
37. ديوان امرئ القيس، تح/ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2004 م.
38. الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تح/ إحسان عباس، بيروت 1997م.
39. رسالة التوابع والزوابع، لابن شهيد الاندلسي، تح/ بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ط1، 1996 م.
40. رقم الحلل في نظم الدول، للسان الدين بن الخطيب، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ.
41. الروض المعطار في خبر الاقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تح/ إحسان عباس، بيروت، 1975م.
42. ريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب، لابن الخطيب، تح/ محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 1980م.
43. ابن زيدون، الطيب العشاش، جعفر ماجد، نشر الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1980 م.
44. سنن النسائي، النسائي، تح/ عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.
45. شعر يزيد بن الطترية، صنعة حاتم صالح الضامن، مكتبة الشعر العربي، مطبعة اسعد، بغداد،دت.
46. صبح الاعشى، القلقشندي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م .
47. الصحاح، الجوهري، تح/ احمد عبد الغفور عطار، القاهرة، 1377هـ.
48. صحيح البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، وطبعه دار مطابع الشعب، القاهرة،دت.
49. صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1984م.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

50. طوق الحمامة في الالفة والالاف، لابن حزم الاندلسي، مكتبة عرفة، دمشق، دط، دت.
51. العبر، وديوان المبتدإ والخبر، لابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1966م.
52. العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، ابن رشيق، تح/ محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط3، 1964م.
53. العين، للفراهيدي، تح/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.
54. فن الخطابة، الشيخ علي محفوظ، دار الاعتصام، دط، دت.
55. فن الخطابة وتطوّره عند العرب، لإيليا حاوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
56. فنون النثر الادبي في اثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الاسلوبية) ، محمد مسعود جبران ، دار المدار الإسلامي ، لبنان ، دار الكتب الوطنية ، ليبيا ، 2004م ، ط1.
57. في النقد الادبي، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1972م
58. القاموس المحيط، الفيروزابادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1987م.
59. القطوف اليانعة من ثمار جنة الاندلس الإسلامي الذانية، لعبد الله انيس الطباع، دار ابن زيدون، بيروت.
60. قلائد العقيان، الفتح بن خاقان، تح/ حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الاردن، ط1، 1989م
61. الكامل في التاريخ لابن الاثير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، دت.
62. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة، للسان الدين بن الخطيب، تح/إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

63. لسان الدّين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 1968م .
64.لسان العرب، ابن منظور، دار الصادر، بيروت.
65. اللمحة البدرية في الدولة النصرية، للسان الدين بن الخطيب، تح/ محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ.
66. مجمع الامثال، ابي الفضل احمد بن محمد المعروف بالميداني، تر/ حسين بن ابي بكر الملقب بالنجمي الكرماني، طبعة طهران، 1290هـ.
67. مختار الصحاح، الرازي، مكتبة مشكاة الإسلامية، دت، دط
68. مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، لصفي الدين البغدادي، تح/ علي محمد البجاوي، م1، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992 م.
69. المعجب في تلخيص اخبار المغرب، عبد الواحد بن علي المراكشي، شرحه صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2006م.
70. المعجم الاوسط، الطبراني، تح/ طارق بن عوض الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ.
71. معجم البلدان، شهاب الدين الحموي، دار الصادر، بيروت، 1977م.
72. معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع،لابي عبيد البكري، تح/ مصطفى السقا، بيروت، ط3، 1403هـ.
73. معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تح/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م.
74. المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد المغربي، تح/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1978م.
75. المفردات في غريب القران، للراغب الاصفهاني، تح/محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
76. المقامة، شوقي ضيف، دار المعرف بمصر، القاهرة، ط3، 1973م.
77.ملامح الشعر الاندلسي، عمر الدقاق، دار الشرق، بيروت، 1973م.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

78. مناهج الجدل في القران، زاهر الالمعي، جامعة الازهر، القاهرة، 1973م.
79. النبوغ المغربي في الادب العربي، عبد الله كنون، ط2، 1960م.
80. النثر الادبي الاندلسي في القرن الخامس، "مضامينه واشكاله" لعلي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.
81. نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لابن الاحمر، تح/ محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1967م.
82. النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، عبد الحليم حسين الهروط، جامعة الحسين بن طلال، دار جرير للنشر والتوزيع، الاردن، ط1، 2006م.
83. النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري ، رضا عبد الغني الكساسبة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، جمهورية مصر العربية ،دت.
84. النثر الفني القديم ابرز فنونه واعلامه، عمر عروة، دار القصبة للنشر، دت، دط.
85. نزهة المشتاق في اختراق الافاق، الإدريسي، الإقليم الثالث، ج1، تح/ م.ت. بيتى سوما، مكتبة الثقافة الدينية.
86. نفاضة الجراب، في علالة الاغتراب لابن الخطيب، القسم الثاني، تح/ احمد مختار العبادي مراجعة عبد العزيز الاهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
87. نفاضة الجراب، في علالة الاغتراب لابن الخطيب، القسم الثالث، تح/ السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط1، 1989م.
88. نفح الطيب من غصن الاندلس الرّطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني، تح/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

89. نفح الطيب من غصن الاندلس الرّطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني، تح/ يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
90. نهاية الارب في فنون الادب، شهاب الدين النويري، ط القاهرة، 1923م.
91. نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين، عبد الله عنان، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1966م.
92. النهاية في غريب الحديث والاثر، ابن الاثير، تح/ محمود محمد الطناجي، المكتبة الإسلامية، ج5.
93. وفيات الاعيان، لابن خلكان، ت/ إحسان عباس، دار صادر، 1968م، ج1.

المجلات:

1. مجلة دعوة الحق، **العدد** 6 7 8، سنة 1966م، **العدد**10، سنة 1972م.
2. مجلة العربي، **الكويت**، **العدد**103، 1967م، **والعدد**323، 1985م.
3. مجلة عصور العددان 4 5 جامعة وهران –السانيا – الجزائر، ديسمبر 2003 م جوان 2004م

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فهرس الموضوعات

مقدمه ..... ج و

مدخل :النص النثري في الادب الاندلسي قبل ابن الخطيب..... 07

26

الفصل الأول

لسان الدين حياته وثقافته وأدبه

- المبحث الاول : نسبه ومولده 27
- المبحث الثاني : ثقافته ومؤلفاته..... 34

48

الفصل الثاني

رسائل ابن الخطيب

- المبحث الاول : الرسائل الديوانية 51
- المبحث الثاني : الرسائل الإخوانية 72

79

الفصل الثالث

خطبه و وصيّته و مناظرته

- المبحث الاول : خطب ابن الخطيب 80
- المبحث الثاني : وصيته لابنائه 87
- المبحث الثالث : مناظرته..... 102

109

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

الفصل الرابع
مقامات لسان الدّين ابن الخطيب

- مقامة السياسة 111
- مقامة معيار الاختيار في احوال المعاهد والديار 122
- خطرة الطيف و رحلة الشتاء والصيف 126

الفصل الخامس
رحلة نُفاضَةِ الجِراب في عُلالَةِ الاغْتِراب دراسة تطبيقية

- **المبحث الاول : المضمون الفكري والحضاري** 128
  - الجغرافية 139
  - التاريخ والقيم الحضارية 141
  - الإتنوغرافيا 143
  - الموروث الثقافي 150
- **المبحث الثاني : جوانب الرحله الفنيه**
  - الاقتباس .....
  - التضمين .....
  - ظاهرة التنويع بين الشعر والنثر .....
  - الاعتراض .....
  - الاسلوب .....

خاتمة .....

فهرس المصادر و المراجع 153

فهرس الموضوعات .....

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

ملخص الرسالة :

هذه دراسة حول نثر لسان الدين بن الخطيب بصفة عامة ، ورحلته المغربية التي قام بها - رحلة نفاضة الجراب بصفة خاصة ، ودراستها وتحليلها شكلا ومضمونا .

الكلمات المفتاحية :

الأدب الأندلسي ، النثر الأندلسي ، لسان الدين بن الخطيب ، أدب الرحلة .

Résumé :

Cette étude s'intéresse à la prose de « Lisan Eddine Ibn El Khatib »en général et sur son voyage au Maroc « Nofadhat El Djirabe » plus spécialement ; cette étude une analyse aussi bien de la forme que du contenu .

Mots clé :

La littérature Andalouse , la prose Andalouse , Lisan Eddine Ibn El Khatib ,la littérature du voyage .

Abstract :

This study is about Lisan Eddine Ibn El Khatib's prose in general, and the travel« Nofadhat El Djirabe » he made in morocco in particular ; this work focuses on both form and content .

Key words :

Andalusian literature , Andalusian prose , Lisan Eddine Ibn El Khatib , travel literature.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

Created with
nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional